مِنْ بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن اليتامَى في السور المكيَّة

إعداد الدكتور

هاني عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

ملخص البحث

العنوان: من بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن اليتامى في السور المكية.

إن القرآن الكريم هو المعين الأول ـ الذى لا ينضب ـ للدرس البلاغي؛ نظرًا لبيان منطقه، وروعة أسلوبه، وجلاله وجماله، وبقاء لغته، وتوضيح لطائف الأسرار التي ينطوي عليها نظمه، ووجوه الإعجاز التي تتضح في أسلوبه وتنطق بها كَلِمُه.

ومن ثم اخترت أن يكون بحثي في القرآن الكريم في آيات اليتامى في السور المكية؛ نظرًا لما كان يعانيه هؤلاء اليتامى من ظلم وقهر وأذى ودفع عن حقهم، مع أن الله ـ تعالى ـ خلقهم وكرَّمهم وجعل لهم مكانة كبيرة في القرآن؛ حتى لا يحتقر أحد شأنهم أو ينقص من قدرهم، فجاء البحث منوّهًا على حفظ حقوقهم، وكرامتهم، والدفاع عنهم، وأنهم نواة مركزية قوية في المجتمع الإسلامي، وفرد من أفراده، لهم حقوق وعليهم واجبات مثل باقي الناس.

وقد جاءت الدراسة في البحث كالآتي:

- **المقدمة:** وبينت فيها تقدمة عن عنوان البحث، ودوافع اختياره، ومنهج البحث، وخطته.
- **التمهيد:** وتناولت فيه: مفهوم اليتيم وحقيقته، ثم مكانته في ضوء الكتاب والسنة .
- **ثم جاءت الدراسة التحليلية في سبعة مباحث:**
  - **المبحث الأول:** النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالحسنى في حفظ ماله وتحقيق مصلحته إلى أن يبلغ الرشد.
  - **المبحث الثاني:** إقامة الجدار نوع من أنواع حفظ الثروة المنتظرة لليتيم رحمة بعباده الصالحين.
  - **المبحث الثالث:** توبيخ الإنسان على بخله وترك إكرام اليتيم مع الغِنى.

- **المبحث الرابع:** إطعام اليتيم القريب سبب من أسباب النجاة في الآخرة .
- **المبحث الخامس:** امتنان الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ ﷺ ـ في يُتمه بنعمة الإيواء .
- **المبحث السادس:** إيصاء الله ـ تعالى ـ النبي ـ ﷺ ـ باليتامى خيرًا .
- **المبحث السابع:** زجر اليتيم وطرده عن حقه من صفات المكذبين بالدين.
- **وفى نهاية البحث** جاءت الخاتمة مقرونة بالنتائج وبعض التوصيات لطلاب العلم والباحثين، ثم فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات "محتوى البحث" .

والله الموفق والمعين

دكتور

هانى عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

Research Summary

Title: From the eloquence of the Holy Quran in his talk about the orphans in the Meccan Wall.

The Holy Quran is the first and irreplaceable source of the rhetorical lesson, because of the statement of its logic, the splendor of its style, its majesty and beauty, the survival of its language, the clarification of the mysteries of its systems, and the facets of miracles that are evident in its style and pronunciation.

Therefore, I chose to be my research in the Holy Quran in the verses of the orphans in the Makki wall, because these orphans suffered from oppression, oppression and harm and paid for their right, although God created them and made them a great place in the Koran so that no one despises their affairs Or the lack of their ability, the research came to the preservation of their rights, dignity, and defense, and they are a central nucleus strong in the Islamic community, and individual members, who have rights and duties like the rest of the people.

The study came as follows:

•Introduction: An introduction to the title of the research, motives of choice, research methodology, and plan.

•Preface: and dealt with it: the concept of the orphan and his truth, and then his place in light of the book and the year.

•Then came the analytical study in seven questions:

The first topic: forbidding the sacrifice of the orphan's money except in the best way to preserve his wealth and achieve his interest until he reaches maturity.

The second topic: The construction of the wall is a kind of preservation of the wealth awaiting the mercy of the righteous slaves.

The third topic: Reprimanding the human being for his immorality and leaving the honor of the orphan with wealth.

The fourth topic: feeding the near orphan a reason for survival in the Hereafter.

The fifth topic: the gratitude of God Almighty to His Prophet in the blessing of shelter.
The sixth topic: Praise God Almighty Prophet orphans good.
الم The seventh topic: the denial of the orphan and his expulsion from the right attributes of those who deny religion.
•At the end of the research, the conclusion was accompanied by the results and some recommendations for students of science and researchers, then the index of sources and references, and then the index of the topics "search content"

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، الرحيم الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، سبحانه المتفضل بالجود والإحسان، المنعم على عباده بنعم لا يحصيها العدّ والحسبان، أنعم علينا بإنزال القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداة، رسول اليتامى والمساكين، الذي نشأ وتربى يتيمًا، ما قال أبي أبي، وإنما قال ربي ربي؛ لئلا يكون للناس عليه فضل، فسبحان مَنْ أدّبه فأحسن تأديبه (ﷺ) وعلى آله الأطهار، وصحبه الطيبين من المهاجرين والأنصار، وتابعيهم من الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد ،،،

فإن القرآن الكريم هو الكتاب المعجز الخالد المنزل من لدن عزيز حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

إن هذا القرآن معجز بلفظه وأسلوبه وبلاغته، فهو بحر زاخر بالمعجزات والأسرار، ومستودع آيات الإعجاز والإبهار، والإعجاز البياني سمة هذا القرآن الكريم، ومحط أنظار الفصحاء والبلغاء، يبحثونه ويكشفون أسراره، ويتبينون مقاصده وأهدافه.

ومما لا ريب فيه أن الدراسة في القرآن الكريم أمر من الصعوبة والخطورة بمكان، ولكن هداية الله ـ تعالى ـ لخلقه في تدبر آيات القرآن ومعانيه أمر يحث كل باحث جادّ في اللغة العربية (خاصة علم البلاغة) على التفكر والتدبر والتأمل فيه دومًا، بل ويحمله ـ قدر المستطاع ـ على أن يكشف وينقب في أسرار كل حرف وكل كلمة وكل جملة، خصوصًا وأن هذا الكتاب العزيز "لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه" كما بين النبي ـ ﷺ.

ولما كانت البلاغة القرآنية بمثابة إثبات صدق الرسالة الخاتمة، كان شرف العلم الذي يتناولها ويتجه بالدراسة والتحليل إليها، مبيناً ما يدرك من سماتها وأوجه العظمة والإعجاز فيها، وذلك العلم هو "البلاغة العربية" ومن ثم كانت منزلة هذا العلم من الفضل والشرف والنبل لسمو هدفه وشرف غايته، فهو الذي يعرض إليه العلماء بكثير من الأساليب التي يدافعون بها عن إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ الكريم، وذلك من خلال بيان أسراره، وروعة أسلوبه وجلاله وجماله، وبقاء لغته، وتنوّع علومه، والكشف عن وجوه فضله وحُسنه وكماله، وتوضيح لطائف الأسرار التي ينطوي عليها نظمه، ووجوه الإعجاز التي تتضح في أسلوبه وتنطق بها كَلِمُه .

ويبين العلامة الزمخشري ـ رحمه الله ـ صاحب عمدة التفاسير في البلاغة العربية " أن علم تفسير القرآن الكريم، والوقوف على أسراره وإعجازه لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه لكل ذي علم...، وإنما لابد من البراعة في علوم البلاغة المختصة بالقرآن الكريم كعلمي المعاني والبيان، وأن البراعة فيهما تحتاج إلى تأنٍّ في ارتيادهما وتعبٍ في التنقير عنهما" (١).

ومن هنا يتضح لنا دقة البحث في القرآن الكريم ومشقة ووعورة مسلكه على جلاله وفضله وشرفه الذي لا يُدانى .

هذا هو الهدف الأسمى للدراسات البلاغية، وعندما يتجه المرء إلى الدراسة التحليلية للقرآن الكريم، ومحاولة التعرف على جماله البياني الذى ينتشر في حروفه وكلماته وتراكيبه وصياغاته . ومدى ملاءمتها للسياق . فغاية ما يمكنه الوصول إليه أن يستلهم بعض أسراره، ويجتلي شيئًا من أنواره، بقدر ما يقدم من جهد، ويبذل من طاقة، وقبل ذلك وبعده بقدر ما يفيض الله عليه ويوفقه إليه وييسره له، نسأل الله الإخلاص والقبول.

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لجار الله الزمخشري، تحقيق/ محمد عبدالسلام شاهين، بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥هـ، (١٦/١) .

ومن منطلق الدراسة البلاغية للقرآن الكريم ـ بفضل الله وتوفيقه ـ أسلك طريقًا من هذه الطرق ملتزمًا بمنهج دقيق (من خلال دراستي التحليلية لآيات اليتامَى في السور المكية) يعكف على تأمل السياق القرآني، وتوضيحه، والمقام الذي ورد فيه، والغرض منه، وملامح الصورة البيانية، ودلالات الخصوصيات التي تنطوي عليها الكلمة وتشير إليها الجملة أو يوحي بها الأسلوب؛ لاستخراج اللطائف والأسرار البلاغية الموجودة في النص من حيث علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع، مع تلمس الخصائص المميزة لكل نوع، وإبراز بعض أسرارها ومواطن الإعجاز فيها.

لذا آثرت أن أعيش في رحاب هذا الحديث القرآني الماتع، كاشفًا عن مدى اهتمام القرآن باليتيم، وهذا يمثل ملمحاً من ملامح سماحة هذا الدين الحنيف، الذي لا يباريه دين ولا ينافسه شرف من حيث الأخلاق النبيلة، والمقاصد الجليلة، والخلال الكريمة، والسجايا الحميدة، وانتشار وعموم الخير والفضل بين الناس إلى قيام الساعة، وكلها أمور تخاطب حواس الإنسان؛ لينفعل ويتأثر بكتاب الله وكلماته، ولهذا فقد احتل الحديث عن اليتامى في الكتاب المعجز أهميةً في نفوس المسلمين لا يُستهان بها؛ لأن هؤلاء اليتامى ـ كما جاء وفق تعاليم ديننا ـ جزء من حياة المجتمع البشري، يدخل في شئونه، لهم ما له وعليهم ما عليه من حقوق وواجبات دون تفرقة أو تجزئة.

دوافع البحث :

كان سر اختياري لهذا البحث راجعًا إلى عدة دوافع، أهمها:

أولًا: شدة التعلق بنيل شرف الانتساب إلى حقل الدراسات البلاغية في القرآن الكريم، والكشف عن جانب من جوانب الإعجاز (التي لا حصر لها) في استخدامه للسياقات القرآنية التي ورد فيها لفظ "اليتيم" بدلالاته المتنوعة، واشتقاقاته المختلفة؛ وصولًا إلى أسرار الجمال الفني في هذا القرآن المعجز .

ثانيًا: مكانة اليتامى السامية عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإعطاء الثواب الجزيل عليها؛ لأنهم طائفة مهمة في المجتمع الإسلامي، وهم الصغار الذين فقدوا كاسبهم قبل أن يعرفوا الكسب، هم الضعاف قبل أن يعرفوا القوة، وقد لا يفطن لهم لضعفهم وقلة حيلتهم، لذلك فإن الاهتمام بهم سبب لإيجاد نواة ثمرة صالحة، منتجة في المجتمع، فإثراء هذا الموضوع ودراسته من خلال ما ورد في كتاب الله ـ تعالى ـ من الأسباب التي أرجو ـ إن شاء الله ـ أن تقوّي جانب الاهتمام باليتامى، واستمالة القلوب الرحيمة نحوهم.

ثالثًا: ما يُلاحَظ من ضعف الاهتمام باليتامى، وقلّة من يرعاهم ويتابع شئونهم (خصوصًا في هذه الفترة الزمنية التي انتشرت فيها البلوى، وعَمَّ فيها الفساد، وتفشَّى فيها ضعف الإيمان في قلوب كثير من الناس بسبب البعد عن منهج الله ورسوله)، مما أدى إلى ظلمهم وضياع حقوقهم، وبقاء رواسب ظلم الجاهلية الذي كان قائمًا على أكل مال اليتامى . خصوصًا اليتيمات من النساء ـ وسلب حقوقهم ظلمًا وعدوانًا، فجاء البحث ليؤكد على الاهتمام بهم، والرعاية لهم، والحث على كفالتهم والإحسان إليهم، وتوجيههم وتأديبهم؛ حتى ينشأوا على مكارم الأخلاق، والفضائل النفسية، والمبادئ الإنسانية، وبث صفة اليتيم في أخلاقهم بمفهومها الصحيح، فلا هي عيب ولا تهمة، بدليل أن الله عظَّم أمر اليتامى في كثير من آياته؛ حتى لا يشعروا بالدُّونية والنقص والعزلة عن بقية أفراد المجتمع رُغْم أنهم جزء لا يتجزأ منه.

رابعًا: حاجة المجتمع إلى التذكرة وتوجيه الوعي نحو هؤلاء اليتامى، وذلك من خلال بث العوامل التي تساعد على ذلك، والتي منها: تقديم ومدّ اليد الحانية التي تحنو عليهم والقلب الرحيم الذي يعطف عليهم، والاهتمام الكبير والمعونة التامة التي تسد عوزهم وحاجتهم المادية، والعاطفية، والسلوكية، والنفسية.

والأمر الثاني: العمل على تجديد الوعي بالتحذير المخيف لآكلي ميراثهم، وتشديد العقوبة في ذلك دون الرجوع إلى التوبة، ومحاسبة النفس وضبطها وكبح جماحها والتزامها بما لها وما عليها .

خامسًا: قلَّة الدراسات التي عُنيت بهذا الجانب لإفراد الموضوع ببحث مستقل يبيّن عناية القرآن الكريم باليتيم، لذا أردتُ أن تكون هذه الدراسة من الأمور النافعة المهمة في إثراء المكتبة اللغوية بإضافة جهد (ولو قليل) في علم البلاغة والنقد، خصوصًا أن البحث في الإعجاز القرآني والوقوفَ على معرفة أسرار ألفاظه وبيانه لا زال في حاجة إلى جهود متلاحقة، ففي كل جهد تتأتى معارف وأفكار، وتظهر إضافات وأسرار، وتتكشف حقائق ودقائق، فكانت آيات اليتيم المكيَّة نموذجًا لذلك.

أما من حيث ما وقع عليه البحثُ من اختيار السور المكية أولًا؛ فذلك مراعاة لترتيب السور من حيث المكي والمدني وفق ترتيب ووقت نزولها على النبي . صلى الله عليه وسلم . وهو ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة؛ مما يكشف لنا النقاب عن معاملة الجاهليين لليتامَى (قبل مجيءالإسلام)، وتلك هي النقطة المركزية التي يدور لأجلها البحث، وهو تفشّى الظلم البيّن بيْن الناس في ظل مجتمع ساد فيه الجهل بقوانين وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، والتي من جملتها رعاية اليتامَى وكفالتهم.

منهج البحث:

كان منهجي في البحث قائمًا على المنهج التحليلي الذي يقوم على الخطوات التالية:

(أ) جمع الآيات الخاصة باليتيم، ثم تقسيم هذه الآيات إلى مباحث مُعَنْوَنة حسب المعنى في الآية.

(ب) ذكر أسباب نزول الآيات إن وجدت، فإن ذلك مما يعين على فَهم سياق الآية من حيث اللغة، والموقف، والمقام، والغرض .

(ج) الدلالات اللغوية للألفاظ، وهو ما يعنى ببيان غريب المفردات والغامض منها من العبارات التي تسهم في فهم المعنى، موضحًا اشتقاقاتها ومعانيها وما يُقصد باللفظة في هذا المقام، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية.

(د) توضيح المعنى العام للآيات، وتفسيرها ـ باختصار ـ مما يعين ويساعد على فهمها وإثراء التطبيق البلاغي لها.

(هـ) الوقوف على إعراب بعض الكلمات في الآية، مما يعين على فهم المعنى المقصود، هذا المعنى الذي نقف عليه لاستخراج الظواهر البلاغية، وإدراك شيء من أسرار النظم البديع.

(و) التحليل البلاغي للآيات، ودراستها دراسة تُعنى بتحليل التراكيب، وإبراز محاسن الصياغات ودلالات الخصوصيات في سياقها الكريم ونظمها العظيم، من خلال فنون البلاغة الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع)؛ وذلك حتى تتم الفائدة البلاغية من هذه الدراسة.

خطة البحث:

وقد تضمن هذا البحث مقدمةً، وتمهيدًا، وسبعة مباحث، وخاتمة، وفهرسين أحدهما للمصادر والمراجع، والآخر لمحتوى البحث .

أما المقدمة: ففيها تقدمة عن عنوان البحث، ودوافع اختياره، ومنهج البحث وخطته.

وأما التمهيد: فقسمته قسمين :

أوّلًا: مفهوم اليتيم وحقيقته .

ثانيًا: مكانة اليتيم .

ثم جاءت الدراسة في سبعة مباحث:

- **المبحث الأول:** النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالحسنى في حفظ ماله وتحقيق مصلحته إلى أن يبلغ الرشد.
- **المبحث الثاني:** إقامة الجدار نوع من أنواع حفظ الثروة المنتظرة لليتيم رحمة بعباده الصالحين .

- **المبحث الثالث:** توبيخ الإنسان على بخله وترك إكرام اليتيم مع الغِنى .
- **المبحث الرابع:** إطعام اليتيم القريب سبب من أسباب النجاة في الآخرة .
- **المبحث الخامس** : امتنان الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ ﷺ ـ في يُتمه بنعمة الإيواء.
- **المبحث السادس:** إيصاء الله ـ تعالى ـ النبي ـ ﷺ ـ باليتامى خيرًا.
- **المبحث السابع:** زجر اليتيم وطرده عن حقه من صفات المكذبين بالدين.

وبــعد ،،،

فإني أدعو الله . ﷻ . أن أكون قد وفقت في هذا العمل المتواضع أمام جلال وعظمة القرآن الكريم وإعجازه، وحسبي شرف القصد وبذل الجهد، كما أسأله . سبحانه . أن يتقبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا فيه الإخلاص والقبول وعموم النفع لكل قارئٍ كريم، وأن يجعلني به فيمن أدى الأمانة وقضى شيئًا من حقوق كتابه العظيم، فهو ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، إنه . سبحانه . سميع قريب مجيب كريم.

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ ﴾ الممتحنة: ٤

دكتور
هانِي عبدالفتاح محمد عبدالفتاح

التمهيد

أولًا: مفهوم اليتيم وحقيقته:

اليتيم في اللغة:

اليتيم كلمة مأخوذة من اليتم، وهو الانفراد، واليتيم: الفرد، واليتم فقدان الأب، ويقال: يَتَم ويَتِم وأيتمه الله فهو يتيم حتى يبلغ الحلم.

واليتيم الذي مات أبوه فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم.

وقيل: أصل اليُتم: الغفلة ، وسمى اليتيم يتيمًا؛ لأنه يُتغافل عن برّه، وقيل: اليُتم: الإبطاء، ومنه أُخذ اليتيم، لأن البرّ يبطئ عنه. واليتم في الناس فقد الصبى أباه قبل البلوغ(١).

واليتامى: جمع يتيم ويتيمة، والأيتام جمع يتيم(٢) واليتيمات: جمع يتيمة، وهو مأخوذ من اليتم وهو الانفراد، فاليتم: الفرد، ومنه سميت "الدرة اليتيمة"(٣).

وقيل: اليتم: الحاجة(٤)، وكل شيء منفرد يعزّ نظيره فهو يتيم، ويقال: درّة يتيمة(٥) أي درة مفردة لا نظير لها ولا مثيل.

---

(١) لسان العرب: لابن منظور، دار صادر، بيروت. ط٣، ١٤١٤هـ، (يَتَم) .

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي . المكتبة الأموية . بيروت . دمشق . ٧٠١ هـ (٢٨٩/١) .

(٣) الكشاف: للزمخشري (٤٦٣/١)، دار المعرفة، ودار الكتاب العربي، بيروت، ط (٣)، ١٤٠٧هـ.

(٤) النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير، تحقيق/ محمود الطناحي . المكتبة الإسلامية، (٢٩١/٥) .

(٥) مختار الصحاح: للرازي، تحقيق/ محمود خاطر، طبعة (١)، بيروت ـ مكتبة لبنان، ١٩٩٥م، صـ ٧٤٥. وظ/ معجم مفردات ألفاظ القرآن: للأصفهاني، ط(١) . بيروت، دار الكتب العلمية ، ص٦١٠.

تنبيهًا على أنه انقطع مادتها التي خرجت منها، وقيل: بيت يتيم تشبيهاً بالدرة اليتيمة(١).

إذن: كلمة اليتيم في أصلها اللغويّ تدور حول معنى الانفراد، والضعف، والبطء، والحاجة، وتلك صفات واقع حال اليتم في الغالب .

وسمى اليتيم بهذا الاسم؛ لعدم الاعتناء الذي يلاقيه من فقد كفيله وهو بهذا السن من العمر(٢).

واليتم الحقيقي يطلق على كل من مات أبوه (ذكرًا كان أم أنثى) وهو دون سن البلوغ، ويبقى يتيمًا حتى يبلغ، ولم يقتصر إطلاق لفظ اليتيم على الطفل الصغير قبل بلوغه، بل يطلق على البالغين أيضًا من باب المجاز، كما كانوا يسمون النبي ـ ﷺ ـ وهو كبير" يتيم أبى طالب"؛ لأنه ربّاه بعد موت أبيه(٣).

وقيل بالنسبة للمرأة إنه لا يزول عنها اسم اليتيم ما لم تتزوج، فإذا تزوجت ذهب عنها(٤).

اليتم في الاصطلاح:

اليتيم في الاصطلاح : من مات أبوه وهو صغير دون البلوغ "ذكرًا كان أم أنثى" فإذا بلغ زال عنه اليُتم، واستقل بنفسه(٥).

---

(١) المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية . دمشق . بيروت . ط(١)، ١٤١٢ هـ، صـ٨٨٩.

(٢) اليتيم في القرآن والسنة: لعز الدين السيد على بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط (٢)، صـ١٢.

(٣) اليتيم في القرآن والسنة، ص١٢ .

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢٩٢/٥) .

(٥) معالم التنزيل: للبغوي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، دار المعرفة، بيروت، (٣٩٠/١).

لقوله . ﷺ : "لا يُتم بعد احتلام"(١).

وقال الشيخ عطية صقر: "اليتيم هو صغير مات أبوه"(٢).

وعرّفه ابن تيمية: الصغير الذي فقد أباه(٣).

وعرفه النسفي: اليتيم من لا أب له ولم يبلغ الحُلم(٤).

والملاحظ على هذه التعريفات : أنها كلها تدور في إطار واحد، وهو أنها تقصر صفة اليُتم على مَنْ فقد أباه، وما يزال في سن الطفولة لم يبلغ الحلم بعد؛ لأن الأب هو المعيل والمنفق، وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية: "اليتيم في الآدميين من فقد أباه؛ لأن أباه هو الذي يهذبه، ويرزقه، وينصره بموجب الطبع المخلوق، ولهذا كان تابعاً في الدين لوالده، وكانت نفقته عليه، وحضانته عليه، والإنفاق هو الرزق، والحضانة هي النصر؛ لأنها الإيواء ودفع الأذى، فإذا عُدم أبوه طمعت النفوس فيه؛ لأن الإنسان ظلوم جهول، والمظلوم عاجز ضعيف، فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقْتضَى ومن جهة ضعف المانع، ويتولد عنه فسادان : ضرر اليتيم الذي لا دافع عنه ولا يُحسَنُ إليه، وفجور الآدمي الذي لا وازع له، ولهذا أعظم الله أمر اليتامى في كتابه في آيات كثيرة..."(٥).

---

(١) سنن أبي داود: أخرجه أبو داود في كتاب (الوصايا) باب : ما جاء حتى ينقطع اليتيم، حديث رقم ٢٨٧٣، تحقيق/ محمد محي الدين عبدالحميد، مصر . دار إحياء السنة النبوية (١١٥/٣).

(٢) تربية الأولاد في الإسلام: الشيخ/ عطية صقر، طـ (١)، القاهرة . مكتبة وهبة، ٢٠٠٣م، (٣٥٨/٤) .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع وترتيب/ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار إحياء الكتب العربية، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م، (١٠٨/٣٤)، نشر مجمع الملك فهد، المملكة العربية السعودية، المدينة النبوية.

(٤) تفسير النسفي: عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي . دار إحياء الكتب العربية، (٥٩/١) .

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية: الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، (١٠٨/٣٤ – ١١٠) .

ثانيًا: مكانة اليتيم:

لقد اهتم القرآن الكريم باليتامى، لا من حيث إنهم مجرد فئة من المجتمع يقدم لهم الفضل وتمد لهم يد العون والمساعدة فحسب، بل تعدى الأمر إلى مشاركتهم ومخالطتهم (نفسيًّا، وعقديًّا، وسلوكيًّا، ومجتمعيًّا)، وجاء في القرآن الكريم ما يدل على كل ذلك، فقال ـ ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾(١)، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾(٢)، وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾(٣)، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾(٤)، وقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾(٥).

وهذا معناه أن الإسلام اهتم بشأن اليتيم اهتمامًا بالغًا، وجعله في مكانة سامية، ومنزلة فاضلة، وأوْلاه عناية خاصة؛ مراعاة لظروفه الصعبة؛ لفقده أباه؛ لأن فقده لأبيه لا ريب أنه يصيبه بشيء من الذل والانكسار والوحشة داخل مجتمعه.

ولمكانة اليتيم عند الله ـ ﷻ ـ ضرب المثل لنا جميعًا بسيدنا محمد ـ ﷺ ـ الذي وُلد يتيمًا وهو حمل في بطن أمه، فحفظه الله ورباه ورعاه وآواه، ورغم يتمه ـ ﷺ ـ إلا أنه جاهد وعاش وصبر وتحمل المشاق من أجل دين الله ونصرته، فما كان يتمه أبدًا سببًا للتقاعس والميْل إلى السكون والراحة، بل كان هذا اليُتم دافعاً للتفوق والبلوغ والنبوغ، والمتتبع لسير الأعلام العظام في تاريخ الأمم يجد أن كثيرًا منهم عاش وتربى يتيمًا، وكان ذلك دافعًا له على الترقي والتفوق والنجاح، ويكفي اليتيم شرفًا أن الذي نشر الهدى والرحمة في الناس وُلد يتيمًا، ونشأ

(١) سورة البقرة : من آية (٢٢٠) .
(٢) سورة الإنسان : آية (٨) .
(٣) سورة الضحى : آية (٦) .
(٤) سورة الضحى : آية (٩) .
(٥) سورة الماعون: آية (٢) .

وتربى وعاش يتيمًا، فاليُتم ليس نقمة ولا يمنع من النجاح والتفوق، بل هو ركيزة من ركائز المجتمع الإسلامي، بهم تقوى البلاد، وتنهض الأمم، فكان اليُتم واليتامى رحمة من الله رب العالمين.

ومن مظاهر اعتناء الإسلام بطائفة اليتامى: إعطاء جميع الحقوق التي أوجبها لهم، وهذه الحقوق منها ما هي حقوق شخصية مثل حقه في الولادة (قبلها وبعدها)، وحقه في الوصية، وحقه في الميراث، ومنها ما هي حقوق مدنية تتعلق بأحكام القانون المدنية المتعلقة باليتيم مثل حقه في الكفالة (أيْ يرعاه ويقوم بشئونه من هم أوْلى الناس بكفالته، وعدم التبنّي له ...)، ومثل حقه الماليّ (أي حقه في امتلاك المال وتصرفه فيه متى بلغ أشده، واستقلال ماله وتميزه عن غيره من الأموال، وحرمة استبدال الخبيث بالطيب في ماله، وحقه في الغنيمة والفيء، وتوثيق دفع مال اليتيم، وحقه في الإنفاق والصدقات وإخراج الزكاة ...) .

ومن اهتمام الله . ﷻ- بشأن اليتيم أنه توعّد من يأكل ماله بغير حقّ بالنار والعذاب الشديد، وهو من كبائر الذنوب؛ لأنه اعتدى عليه وأجرم في حقه، واستغلَّ ضعفه وقلّة ناصره وحافظه، بل نهى الإسلام عن القرب من ماله إلا بالتي هي أحسن؛ خشية الوقوع في أكله بغير حقّ.

وكل ذلك جعله الله ـ تعالى ـ حفظًا لكرامة اليتيم، وصيانةً لماله، وعنايةً واهتمامًا به؛ ليصبح عضوًا كريمًا ناجحًا له أثره الطيب ولا يكون عالة أو وبالًا على مجتمعه.

"والمتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله . تعالى . جعل لهؤلاء اليتامى مكانة شريفة، وكفاهم فخرًا وعزًّا أن الله أوصى بتقواهم والإحسان إليهم بعد تقواه . سبحانه . وهذا معناه الوصية باليتامى والعناية بهم والعدل معهم وكشف عوار الجاهلية وتعسفها فيما تعامل به اليتامى من ظلم يتمثل في أكل أموالهم بغير حق...، ولقد أنزل الله آيات عدة فيها تشريعات عملية في وجوب حفظ أموال اليتامى وإيتائهم إياها بعد بلوغهم ورشدهم، والعدل مع اليتيمات خاصة وبين

النساء عمومًا، والتوكيد على حقوق اليتامى، والوعيد الشديد لمن يعتدي على حقوقهم وأموالهم"(١).

أما السنة النبوية المطهرة فقد حثت أيضًا على كفالة اليتيم وصيانته والحفاظ عليه في أحاديث كثيرة، منها قوله . ﷺ : "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه"(٢).

وعن أبي هريرة . ﷺ أن النبي . ﷺ قال: " كافل اليتيم أنا وهو كهاتين في الجنة، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى، وفرق بينهما"(٣).

وجاء في شرح هذا الحديث: "حق على كل مؤمن يسمع هذا الحديث أن يرغب في العمل به ليكون في الجنة رفيقًا للنبي ـ ﷺ ـ ولجماعة النبيين والمرسلين ـ صلوات الله عليهم أجمعين، ولا منزلة عند الله في الآخرة أفضل من مرافقة الأنبياء"(٤).

فاليُتم . إذن . ليس بعْيب ولا نقص للإنسانية، بل هو سنة من سنن الله . تعالى . في الحياة الدنيا، وقانون وضعه ربنا ليختبر من خلاله الخُلُق المسلم الذي يجب أن يكون دومًا على طاعةٍ لله وعبادة دون سخط أو جزع، ثم من رحمة الله ـ سبحانه ـ بهذه الفئة أن جعلهم في مكانة سامية، وخصَّهم دون غيرهم بقوانين يجب أن تُراعى؛ حتى لا يشعروا بالنقص فيمرضوا بأمراض

(١) حقوق اليتامى كما جاءت في سورة النساء: د/ سليمان إبراهيم اللاحم، دار العاصمة، ١٤٢٤هـ، صـ ٣-٤.

(٢) الأدب المفرد: للبخاري، باب : خير بيت فيه يتيم يحسن إليه، بيروت . دار البشائر الإسلامية . ١٩٨٩م، صـ٦١.

(٣) شرح النووي على مسلم: (١١٣/١٨) كتاب الزهد، باب: فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط (٢)، ١٣٩٢هـ.

(٤) شرح صحيح البخاري: أبو الحسن على بن خلف بن بطال: (٢١٨/٩)، كتاب الأدب، ط (١)، الرياض . مكتبة الرشد، ٢٠٠٠م.

الحقد والحسد والبغضاء، وتلك هي حكمة الله . ﷻ ـ في الاهتمام بهم والحث على كنفهم، وهذا خير برهان على أن حفظ الإنسان فى دينه وعقله ونفسْه ونسْله وماله من أهم ما دعتْ إليه تعاليم ديننا؛ حتى تتآلف طبائع المسلمين وأمزجتهم بقلوب ونفوس مُحبة صفية نقية تقية، ملتزمة بعبادة الله، تعرف ضروراتٍ وواجباتٍ شتّى تكون سببًا في الزلفى إلى الله ـ ﷻ ؛ حتى تسمو أرواحنا وتتغذّى عقولنا وترتاح أعصابنا بالدوام على طاعة الله . تعالى ..

وصفوة القول في ذلك :

أن رعاية اليتيم وإصلاح شأنه خُلُق إنساني كريم وحضاري رفيع من جملة فضائل الأخلاق ومكارمها على مّر العصور والدهور، واختلاف الأزمنة والأمكنة، حتى على مّر الأجيال واختلاف نزعاتهم ومناهجهم وعقائدهم وعلمهم، وذلك قول الله . تعالى .: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.(١)

❁❁❁❁❁

(١) سورة البقرة : من آية (٨٣) .

عرض إجمالي لآيات اليتيم في السور المكيَّة

(١) قوله ـ تعالى ـ:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

سورة الأنعام: آية (١٥٢)

(٢) قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

سورة الإسراء : آية (٣٤)

(٣) قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

سورة الكهف : آية (٨٢)

(٤) قوله . تعالى . : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

سورة الفجر: آية (١٧)

(٥) قوله . تعالى . : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾

سورة البلد: آية (١٥)

(٦) قوله . تعالى . : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

سورة الضحى: آية (٦)

(٧) قوله . تعالى . : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾

سورة الضحى: آية (٩)

(٨) قوله . تعالى . : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾

سورة الماعون : آية (٢)

المبحث الأول

النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالحسنى في حفظ ماله وتحقيق مصلحته إلى أن يبلغ الرشد

وذلك في موضعين :

الموضع الأول : قوله . تعالى . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١).

الدلالات اللغوية :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾: القرب نقيض البعد، ويستوى في ذلك الذكر والأنثى، والفرد والجميع، والتقرب: التدنّى إلى الشيء والتوصّل إليه، وقيل: نقرب الشيء أي نطلبه، ويقال: فلان يقرب حاجته أي يطلبها.(٢)

﴿أَحْسَنُ﴾: الحسن ضد القبيح، والمحاسن من الإنسان وغيره ضد المساءة.(٣)

﴿يَبْلُغَ﴾ : من البلوغ وهو الوصول إلى الشيء، وقد تسمى المشارفة على الشيء بلوغاً بحق المقاربة، وقيل: يبلغ بمعنى يشتد، فيبلغ أشده أي يشتد، ويقال: تبلغت القلة بفلان إذا اشتدت. (٤)

﴿أَشُدَّهُ﴾: قيل: الأَشُدّ جمع شَدّ مثل الأَضُرّ جمع ضَرّ، والأَشُرّ جمع شَرّ، والشد هو القوة واستحكام قوّة شبابه وسنّه، كما تقول: "شدَّ النهار"

---

(١) سورة الأنعام، آية (١٥٢) .

(٢) لسان العرب: مادة "قرب" . (٦٦٣/١ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧) .

(٣) مقاييس اللغة: لابن فارس، تح/ عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩هـ،مادة "حسن"، (٥٨/٢).

(٤) السابق، مادة "بلغ" ، (٣٠٢/١ بتصرف يسير).

أي ارتفع وامتدَّ[١]. وشدّ لفظ يدل على قوةٍ في الشيء، يقال رجل بلغ أشده، أي بلغ قواه، والشدة ثبات القلب.[٢]

﴿وَأَوۡفُواْ﴾: مِن "وَفَى" وهى كلمة دالة على إكمالٍ وإتمامٍ، ومنه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط، ومنه: أوفيتُك الشيء إذا قضيتُه لك، واستوفيتُه إذا أخذتَه كله دون نقص حتى لم تترك منه شيئًا.[٣]

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: العدل، من أقسط يُقسِط، ومنه قوله . تعالى .: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .[٤]

﴿نُكَلِّفُ﴾: الكُلْفة: المشقة، وما يتكلف من نائبة أو حق[٥]، والكَلِف: الوَلوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة، وكلفهُ تكليفًا: أمره بما يشق عليه، وتكلفت الشيء تجشمته على مشقة، وكلفته إذا تحملته.[٦] تحملته.[٦]

﴿وُسۡعَهَاۖ﴾: من التوسعة على الناس في شيءٍ رخص لهم، والسعة نقيض الضيق، وقيل: إلا وسعها: بما أفاض الله عليها من السعة وأتاح لها من الرفاهية والغنى، والسعة: الجدة والطاقة وهو مِن قَدْر جدَّة الرجل وطاقته [٧].

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري، تح/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط(١)، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، (٢٢١/١٢) .
(٢) لسان العرب: مادة "شد" (٢٣٥/٣).
(٣) مقاييس اللغة، مادة "وَفَىَ" (١٢٩/٦)
(٤) سورة المائدة:من آية(٤٢)، وسورة الحجرات :من آية(٩)٠المصدر السابق (٨٥/٥).
(٥) السابق: (١٣٦/٥)
(٦) لسان العرب: (٣٠٧/٩)
(٧) السابق، (٣٩١/٨ ، ٣٩٢)

﴿فَاعْدِلُوا﴾: العدل: الحكم بالاستواء، والعدل نقيض الجور، تقول: عدلتُ الشيء: أقمته حتى استقام واستوى.(١)

﴿قُرْبَىٰ﴾: القربى: القرابة، وذا قربى: من يقرب منك رحمًا. (٢)

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال، وسمّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدًا، ويقال: عهد فلان إلى فلان، أي ألقى عليه العهد وأوصاه بحفظه.(٣)

﴿وَصَّىٰكُم﴾: الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، ووصى: أنشأ فضله عليهم(٤)، ووصيت الشيء بكذا إذا وصلته، يقال: أرض واصية: متصلة النبات، وقد وَصَت الأرض: إذا اتصل نبتها(٥).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: من الذّكْر، والذكرَى خلاف النسيان، ورجل ذِكّير: جيد الذكر والحفظ، وذكرتُ الشيء بعد النسيان وذكرتُه بلساني وقلبي، والتذكرة: ما تستذكر به الحاجة(٦).

المعنى العام:

تدعونا هذه الآية الكريمة إلى المحافظة على مال اليتيم، وذلك بعدم المساس أو الاقتراب من ماله البتة إلا بما فيه مصلحة أو منفعة تؤدي إلى تنمية هذا المال وزيادة نتاجه، ويكون الإنفاق منه بحسب الحاجة أو الضرورة

(١) مقاييس اللغة: (٢٤٧/٤) .
(٢) السابق (٨٠/٥)
(٣) المفردات في غريب القرآن: ص ٥٩١.
(٤) المفردات في غريب القرآن: ص (٨٧٣ ، ٨٧٤) .
(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي، تح/ أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط(٤)، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، (مادة وصى) .
(٦) السابق (٦٦٤/٢، ٦٦٥)

التي تستدعى النفع لهؤلاء الأوصياء على اليتامى، وذلك حتى يبلغوا مبلغ الرجال.

ثم توجب الآية بعد ذلك تحرى العدل فى عملية الكيْل والميزان حال البيع والشراء، والأخذ والإعطاء بقدر المستطاع .

ثم يأمر الله . ﷻ بالعدل مرة ثانية في القول حال الشهادة أو الحكم أو أي أمر يتعلق بأمور الدين والشرع ولو كان المقول (له أو عليه) ذا قرابة منكم، وفي ذلك حث على إصلاح الفرد والمجتمع، وبث المبادئ السامية ونشر القيم الفاضلة فيهم كما أمر الله . ﷻ .

ثم يأمر الله . تعالى . بعد ذلك بالوفاء بعهد الله . سبحانه .، فإن في ذلك الإعانة على طاعة الله والقرب من مودته، والبعد عن مزالق الشيطان.

ثم ختمت الآية بقوله . تعالى .: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أن الله . ﷻ . وصاكم بما سبق من المحافظة على مال اليتيم، والعدل في البيع والشراء، والعدل في القول، والأمر بالوفاء بعهد الله؛ وذلك رجاء أن تتعظوا ويذكر بعضكم بعضًا بما كنتم فيه أيام الجاهلية من ظلم الشرك والانغماس في الشهوات والإغراق في المحرمات فتنتهوا.

التحليل البلاغي :

بدأت الآية الكريمة بهذا الأسلوب الإنشائي "ولا تقربوا" وصيغته (النهي)، والمراد منه الوعظ والزجر لهؤلاء المخاطبين من الأولياء والأوصياء على هؤلاء اليتامى إن لم يلتزموا بهذا القانون الإلهي، وفى الوقت نفسه وجوب وإلزام وتحذير وتنفير من مجرّد الاقتراب، فما بالنا من الاستيلاء عليه!، ثم تأتى التوسعة بعد ذلك من خلال المستثنى في قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وفي ذلك حث على الأدب في حق احترام اليتيم وإقامة العدل حين يشرع الله . ﷻ . الأخذ من ماله، والتعامل فيه بأحسن الطرق وأفضلها خصالاً.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قصر موصوف على صفة، حيث قصر الله . عزَّ وجلَّ . الاقتراب من مال اليتيم على أحسن الطرق

وأفضل الخصال، وقد جاء هذا القصر على أبلغ طرق القصر وأقواها وهو النفي والاستثناء؛ وذلك ردًّا على المشركين الذين لا يزالون في لباس الجاهلية من الاغتراف من مال اليتيم دون رقيب أو حسيب أو وضع قانون يوقفهم وَيُرْدِعُهم في ذلك الشأن ويحدّد لهم ما يؤخذ وما لا يؤخذ ومتى يؤخذ وكيف يؤخذ؟

ثم ذكر الله ـ سبحانه ـ ضمير الفصل "هي" ، والسر في ذلك توكيد معنى القصر، وتمكين وتقرير واختصاص أحقية هؤلاء اليتامى بأفضل الطرق المشروعة وأحسنها لتثمير أموالهم والعمل على زيادة ربحها، ولذلك جيء باسم الموصول "التي" تحقيقًا لهذا الهدف المنشود، ودلالة على أن ما بعده من قبيل الفضل العظيم، والخير العميم، إذ إن ما ذكر في الصلة من أفعل التفضيل يناسب هذه الدلالة ويشير إليها .

ويُفهم من هذا الاستثناء أمر آخر هو الطباق بين (لا تقربوا، إلا بالتى)، وهو طباق يبرز المعنى ويقويه بالتضاد المعنوي بين اللفظين.

كما يُلحظ هنا إعجاز القرآن الكريم في استعماله لكلمة "ولا تقربوا" دون "ولا تأكلوا"؛ تجنبًا للوسائل التي تفضي إلى تلف مال اليتيم، فكيف بإتلاف مال اليتيم؟!، ومن ثم فإن قوله "ولا تقربوا" أبلغ من "ولا تأكلوا"؛ لأن النهي عن القرب عن الشيء أبلغ من النهي عن الشيء نفسه؛ " لأن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه وعن الشبهات التي هي فطنة التأويل كأن يأكل من مال اليتيم إلا لضرورة أو حاجة فيها مصلحة؛ لقوله: ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ... ﴾.[1] (سورة النساء ٤ – ٦)

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د/ وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط(٢)، ١٤١٨هـ، (٩٨/٨).

ولم يغفل الإمام عبدالقاهر عن أن اختيار اللفظ واصطفاءه دون سواه يصل إلى حد الإعجاز، فيقول: "ولا جهة لاستعمال هذه الخصال . يعني حسن الدلالة وتمامها وتبرجها ـ غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصل لتأديته وتختار اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتمّ له وأحرى بأن يكسبه نُبْلًا ويُظهر فيه مزيّة"(١). "وهكذا تجد دقة النظم القرآني وإعجازه، حيث توضع الكلمة في مكانها اللائق لا تتجاوزه فتعبر عن المعنى أصدق تعبير، وترسم صورة للمعنى غزيرة الدلالة، قوية الإيحاء" (٢).

وهذا معناه أن إيثار لفظ دون غيره لابد له من أغراض :

أولها: خصوصية هذا اللفظ بالمقصود وإيثاره على غيره .

وثانيها: تدرّج المعنى المطلوب وخفاؤه في ظلال هذا اللفظ دون غيره.

وثالثها: أنه لا يَكشف عن المعنى الملائم للسياق إلا هذا اللفظُ بالتحديد.

وجاءت الصيغة هنا في "ولا تقربوا" بالمضارع؛ للدلالة على التجدد الاستمراري، فعناية المخاطب بالمحافظة على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه أمر يتجدد في قلبه لا يفتر عن تذكرته أو نسيانه أو الغفلة عنه، وفي المضارع إشارة أيضًا إلى عدم التخلي عن اليتامى ودوام السعي على مصالحهم وصولًا إلى الأحسن والأفضل، وكأن في ذلك تعهدًا لمال اليتيم والإقبال عليه والصيانة له حتى يبلغ أشده.

كما أن الصيغة في هذا الفعل جاءت صالحة لكل زمان ومكان، حيث إن النهي هذا موجه فيه الخطاب لكل عموم الأوصياء والأولياء غير خاص بزمن أو مكان معين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لذا جاء المضارع لتصوير واستحضار هذا المشهد حتى تكتمل عناصر الأسلوب الذي

---

(١) دلائل الإعجاز: للإمام عبدالقاهر الجرجاني، صـ٤٣، تح/ محمود محمد شاكر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٢) من أسرار النظم القرآني في سورة القلم: د/ رفعت السوداني، صـ٢٧٦، ط(١)، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

دل عليه النهي من موقف الذين يصرون على أكل أموال اليتامى ويتلمسون دائمًا الحيل التي بها يدخلون على أقربائهم من اليتامى، فكأن في هذا النهي حثًّا لهم على عدم الغفلة لحظة عما كلفوه من وقت إلى آخر حتى لا تقف الوصية عند وقت أو زمنٍ معين.

وجاءت الوصية هنا خاصة بمال اليتيم؛ "لأن الطمع فيه أكثر؛ لعجزه وقلة الناصر له، بخلاف مال البالغ، أو لأن التخصيص بمجموع الحكمين وهما النهي بقربانه، وبغير الأحسن".(١)

ونفهم من ذلك أن الله . تعالى . خص اليتيم هنا؛ لضعفه، وقد يفطن إليه لقلة حيلته، فهو مظنة للإضاعة، ولم يوص الله بمال غير مال اليتيم؛ لأن غيره يكون بالغًا، والحرمة في حق البالغ ثابتة، ولأنه يستطيع أن يدفع عن نفسه أو يستدفع بأوليائه وذويه.

وفي قوله: "مال اليتيم" تعريف بالإضافة؛ للدلالة على التنبيه إلى مكانة وخصوصية هذا المال وتمييزه عن غيره من الأموال، فالإضافة هنا للتخصيص، وهى توحي بضعف اليتيم واحتياجه للعطف والرعاية، وجملة "ولا تقربوا مال اليتيم" جاءت أيضًا كنايةً عن ضرورة حفظ هذا المال . وسر جمال الكناية: الإتيان بالمعنى مصحوبًا بالدليل عليه في إيجاز وتجسيم.

والباء في "بالتي هي أحسن" للملابسة، أي ملابسين للخصلة أو الحالة التي هي أحسن حالات القرب، أوْ لا تقربوها في حالٍ من الأحوال إلا حال ملابستكم بالأحسن الذي أمر الشرع ببذل الجهد فيه؛ وصولًا إلى الأفضل والأخْيَر، وجاء اسم الموصول "التي" صفة لموصوف محذوف يُقدَّر مناسبًا للموصول الذي هو اسم للمؤنث فيقدر بالحالة أو الخصلة باعتباره مؤنثًا يجرى مجرى المَثل، "وقد التزم حذف الموصوف في مثل هذا التركيب، واعتباره مؤنثًا

(١) البرهان في علوم القرآن: للزركشي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، (٢/٤٣٣)، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية . مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

يجرى مجرى المثل، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي بالخصلة الحسنة ادفع السيئة"[1]، وعلى ذلك يكون تقدير الكلام : إلا بالحالة أو الخصلة التي هي أحسن، وهذا استثناء يخصص أن يكون سبب القرب هو الإحسان والخير، ولذا يجوز في "الباء" أن تكون للسببية، والله أعلم.

ومن الملحوظ في الآية إفراد كلمة "اليتيم" والمراد جميع اليتامى، لكنها أُفردت في هذا المقام لدلالة ما قبلها عليها، وهو صيغة الجمع في "تقربوا" وهي قرينة على قصد الاستغراق، ثم كلمة "مال" وهي اسم جمع لكل مال، ثم ترى اللفظة "اليتيم" مُحلَّاة بأل التي هي للجنس المفيد للاستغراق، أي كل جنس من أجناس اليتامى داخل في الآية دون استثناء، والسر البلاغي في إفراد الكلمة هو العناية باليتيم، وإشارة إلى أنه النوع الفريد الخاص من الناس الحقيق بغاية تفوقه على بقية الأفراد حتى كأن ما عداه من الناس خارج فيه بالنسبة إليه.

والجنس يراد به جميع أفراده، فإنْ أُريد الاستغراق وجدوا قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق كما في قوله . تعالى .: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ ﴾[2].

وعلى ذلك فإن اللام في "اليتيم" يجوز أن تكون للاستغراق؛ لإفادة وجوب الرعاية لكل اليتامى دون اجتزاء لهم، والحرص على كل ما لهم دون إخلال بها ولا اجتزاء ولا نقصان منها.

وقوله : (أحسن) صيغة أفعل التفضيل، فلم يقل ربنا ـ سبحانه ـ (حسنة)؛ للدلالة على أن هناك أكثر من حسن، "والحسن هنا يشمل الحسن الدنيوي والحسن الأخروي، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا،

(١) التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر ابن عاشور التونسي، (١٦٣/٨)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

(٢) سورة العصر، آية (٢) .

والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الربا، فيقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي المادي".(١)

وذكر ابن تيمية: "أن الله . ﷻ- لم يقل "إلا بالتي هي أحسن"؛ وذلك لأن الوالي راعٍ على الناس بمنزلة راعى الغنم، كما قال . ﷺ- : "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته"(٢).

والمفهوم من هذا الكلام أنه واجب على الراعي تقديم أحسن وأميز ما لديه لرعيته، ويكون ذلك خير دليل وبرهان على حسن الرعاية، والالتزام بتقوى الله في الرعية.

وقوله: "حتى يبلغ أشده" والأشد هنا الذي يكون به التكليف، و"حتى" غائية، تفيد بلوغ الغاية، أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية؛ ليحمي ما له ويحسن القيام عليه، فجاءت "حتى" غاية للمستثنى أي إلى أن يبلغ صاحبُه أشده فيُسلَّم إليه، والجملة قيد يخرج يتامى المشركين، فإنهم أهل حرب يجوز غنيمة أموالهم " ... لكن هنا أخذ وقربان فيخرج به يتامى المشركين، فيكون "بالتي هي أحسن" إذا فُسر الأحسن بأمر الله ورسوله"(٣).

معنى البلوغ في الآية الوصول "وهو مجاز في التدرج في أطوار القوة المخرجة من وهن الصبا"(٤).

وفى كلمة "يبلغ أشده" كناية عن أمرين: الرشد (الذي به استواء البنيان واشتداده) ثم سلامة العقل وزواله من السفه، ولذلك أمر الله ـ تعالى ـ بدفع

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد: لمحمد بن صالح بن عثيمين ، (٤٠/١)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط (٢) ، ١٤٢٤ هـ.

(٢) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، (٢٥٠/٢٨)، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم (٥١٦٧)، (٥٣٣/٤)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط (١)، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

(٣) السابق (٤٧٨/١٤) .

(٤) التحرير والتنوير: للطاهر ابن عاشور، (١٦٤/٨).

الأموال إلى اليتامى بثلاثة شروط: الأول: ابتلائهم واختبارهم بما يؤهلهم لمصالح أنفسهم وتدبير شئون حياتهم وحسن التصرف في أموالهم، والثاني: البلوغ، والثالث: الرشد، بدليل قوله . سبحانه . : ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ...﴾ (١)، بدليل أن هذه الآية جاءت بعد الآية التي قبلها : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ...﴾ (٢)، وذلك على أساس أنهم بلغوا الرشد وتأكد الأوصياء من زوال سفههم ووهن صباهم (خلوهم من الضعف) .

وذكر القرطبي: "أن كلمة "الأشد" هنا مطلقة، حيث إن المراد بالأشد: القوة، وقد تكون قوة في البدن، وقد تكون في المعرفة بالتجربة، ولابد من حصول الوجهين، وهذا بخلاف حال اليتيم في سورة النساء، فإنها جاءت مُقيدة في قول الله: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا...﴾ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد، لأنه لو مُكّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهوته وبقي صعلوكًا لا مال له"(٣).

وفي الجملة إيجاز بالحذف يؤكد ما سبق، والتقدير: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله(٤)، والسر في هذا الحذف هو دقة التحري في مسألة بلوغ اليتيم في خفاءٍ تام، فإذا تأكد الأولياء والأوصياء من ذلك دفعوا لليتيم ماله؛ لتكون له حرية التصرف والمِلك لها.

---

(١) سورة النساء: من آية (٦).

(٢) سورة النساء: من آية (٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، تحقيق/ أحمد البردوني (١٣٥/٧) دار الكتب المصرية، القاهرة، ط (٢) ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٤) السابق نفسه.

وجاء التعبير في كلمة "يبلغ أشده" بالمضارع، وفي ذلك دلالة على أن البلوغ له علامات لا تستكمل إلا عبر مراحل وأطوار لابد من مرور الشخص بها من وقت إلى آخر، فهو في استمرار وتجدد للعهد الجسمي والعقلي حتى يشتد عوده لكل مراحل التربية لدى الطفل إلى أن يستقيم بنيانه وعقله معًا، ولا ريب في أن كل وقت من الأوقات يكون داعيًا لتجديد العقل وتنشيطه وتقويته وتهذيبه فضلًا عن تقوية الجسم من حين إلى آخر.

ثم قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ...﴾، فى الجملة أمر من الله . ﷻ. بالوفاء في عملية الكيل والميزان، وهو أسلوب إنشائي الغرض منه الوعظ والنصح والإلزام بالثبات والدوام على المطلوب، والكيل والميزان هنا إشارة إلى قمة العدل الذي يجب أن يكون بين البشر (سواء في العبادات أو المعاملات)، واقتران الكيل بالميزان يؤكده قوله بعد ذلك (بالقسط)، "وخص الكيل والميزان هنا؛ لأنهما الحكم في أموال الأيتام وغيرهم"(١)، فكان العطف بينهما للعموم والشمول.

وكلمة "بالقسط" جاءت تأكيدًا للكيل والميزان؛ لئلّا يحتمل أن يكون هناك نقص أو تطفيف، "فإطلاق الشيء على ما قاربه نحو "قد قامت الصلاة" أي قرب قيامها، وهذا وقت كذا إذا قرب جدًّا، ويزيل هذا الاحتمال بقوله "بالقسط" أي إيفاءً كائنًا به من غير إفراط ولا تفريط"(٢).

فإن قيل: إيفاء الكيل والميزان هو عين القسط، فما الفائدة من هذا التكرار المعنوي؟ السر في ذلك التنويه بشأن الأمر والاعتناء به حال تطبيقه في حياتنا اليومية، مما يلزم تحرى العدل بين الطرفين (البائع والمشتري) اقتضاءً لمصلحتهما وطيب نفسهما، "والفائدة أن الله . تعالى . أمر المعطى

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (٣١٩/٧)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، طبعة الهند، سنة ١٣٨٩هـ.

(٢) السابق نفسه.

بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة فتدبر" [١].

وفي الجملة إيجاز بحذف المضاف تقديره: مكيل الكيل، وموزون الميزان بالقسط، وقوله "بالقسط" جار ومجرور في موضع الحال من ضمير "أوفوا" أي حال كونكم مقسطين، "ويجوز أن يكون حالًا من المفعول أي: تامًّا، ولعل الإتيان بهذه الحال للتأكيد"[٢].

والمتأمل في هذه الجملة يجد أن الأمر هنا جاء بالوفاء دون أن يأتي بالنهي عن التطفيف كما في قول سيدنا شعيب . عليه السلام لقومه في سورة هود: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...﴾[٣]؛ "إشارة إلى أنهم مأمورون بالحد الذي يتحقق فيه العدل وافيًا، وعدم النقص كما في آية هود يساوى الوفاء أيضًا، لكن في اختيار الأمر بالإيفاء اهتمامًا به؛ لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب ترك التنقيص، وفيه تذكير لهم بالسخاء الذى يتمادحون به"[٤].

والأمر في قوله :"أوفوا" يدل بفحوى الخطاب على وجوب الثبات على حفظ المال فيما هو أشد من التطفيف، "فإن التطفيف إن هو إلا مخالسةُ قدر يسير من المبيع، وهو الذي لا يظهر حين التقدير، فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أَوْلى بالحفظ، وتجنب الاعتداء عليه".[٥] وكل ذلك إشارة إلى عدم التنقيص من مال اليتامى، والعمل على ربحه وتثميره بالعدل المشار إليه في الآية.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي (٢٩٨/٤)، تح/ على عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٤١٥هـ.

(٢) السابق نفسه.

(٣) سورة هود: من آية (٨٤).

(٤) التحرير والتنوير : (١٦٥/٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٦٦/٨).

والباء في " بالقسط" للملابسة أي أوفوا متلبسين بالعدل بألا تظلموا المكتال حقه، ومثلها في ذلك مثل قوله . تعالى . : ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ... ﴾[1].

وقوله: ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ﴾[2].

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، جاءت هذه الجملة تفسيراً وبياناً لقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ... ﴾؛ لأن من أوفى وزاد في الكيل والميزان عن طيب نفس دون أن يشق عليها أو دون إكراه من أحد لم يؤاخذ، وفي ذلك تأويل وسعها؛ " لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي بالكيل والميزان أحيانًا، فأعقب ذلك بقوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، مما يدل على أنه إذا بذل جهده وطاقته واكتشف أن هناك نقصًا فلا يعدّ مخالفًا؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفوّ عنه، وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من جهة (وهو ما خرج عن الوسع) فإنها تفيد التغليظ من جهة أخرى، وهو أن على المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متى يتبين الخطأ وجب تلافيه، لأنه داخل في الوسع".[3]

ونفهم من ذلك أن النفي في "لا نكلف" جاء دفعاً للحرج المستلزم لطاقة واستطاعة البشر، "جاء الغرض من التكليف هنا بحسب الوسع والطاقة، وبيان أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم".[4] وفى ذلك كناية عن الرحمة والعدالة الإلهية.

ويقول الألوسي في تفسيره:

"وجملة" لا نكلف نفسًا إلا وسعها" مستأنفة جيء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل؛ للترخيص فيما خرج عن الطاقة، لما في ذلك من مراعاة رفع الحرج مع كثرة وقوعه، وإنما جاء القرآن الكريم كله مبنيًّا على رفع

(١) سورة آل عمران: جزء من آية (١٨).
(٢) سورة الحديد: من آية (٢٥).
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (٤١/١).
(٤) الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية: د/ على محمد الصلّابي، المكتبة العصرية، ط أولى، صـ ٨٤.

الحرج عن الإنسان كأنه قيل: عليكم بما في وسعكم في هذا الأمر، وما وراءه معفو عنكم، ويجوز أن يكون مجيئ الاستئناف لتهوين أمر ما تقدم من التكليفات ليقبلوا عليها كأنه قيل : جميع ما كلفناكم به ممكن غير شاق ونحن لا نكلف ما لا يطاق".(١)

وأفهم من ذلك جواز وقوع هذه الجملة تذييلًا للجمل التي قبلها، تسجيلًا عليهم بأن جميع ما دعوا إليه هو في طاقتهم ومُكنتهم وغير شاق عليهم.

وفي الجملة قصر موصوف على صفة عن طريق النفي والاستثناء؛ ردًّا على من يزعم أن المشقة ضمن تكاليف الله لعباده، ﴿ ۞ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾(٢)، فقصر الله ـ ﷻ ـ التكاليف الشاقة بغير مقدور النفس على ما تسعد قدرة الإنسان وهو ما دون مدى طاقته، ولاحظ وتأمل نون العظمة في حق الله . تعالى . "لا نكلف" ووضع المضمر موضع الظاهر، بخلاف قوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ (٣)، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾(٤)؛ لخطورة ومكانة هذه الوصايا، اهتمامًا بها ومزيد عناية، بدليل قوله في ختام الآية: " ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ" فالموصِى هو الله . ﷻ ـ ، وكأن الأمر فيه تخويف وتشديد وترهيب لمن لم يلتزم بهذه الوصايا والعمل بها مع يُسرها وسهولة تطبيقها، فالنون في "لا نكلف" . إذن . جاءت دالة على تعظيم الله وتفخيم شأنه، مما يشير إلى عظمة هذه الوصايا، ومثل هذا التعبير القرآني تراه أهيب وأجل لنفوس هؤلاء المشركين والبشر الذين لا يزالون في ربقة الجاهلية وظلمها، كما أن في حرف النون هنا في الفعل

(١) روح المعانى: (٤/٢٩٩) .
(٢) سورة البقرة: من آية (١٨٥).
(٣) سورة البقرة: من آية (٢٨٦).
(٤) سورة الطلاق: من آية (٧).

المسند إلى الله ـ ﷻ ـ معنى المنّة والامتنان الذي تولى الله خطاب الناس فيه بطريق التكلم مباشرة. (١)

وجاءت كلمة "نفسًا" نكرة فأفادت العموم والشمول؛ لتنتفي الكلفة والمشقة عن كل نفس تسعى جاهدة أن تتحمل فوق طاقتها، وفي التنكير إشارة إلى عموم رحمة الله بالناس أجمعين في كل الشرائع والأديان السماوية، فسبحان الله وسعت رحمته كل شيء، يقول الطاهر ابن عاشور: "وهذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله ـ تعالى ـ ؛ لعموم "نفسًا" فى سياق النفي؛ لأن الله ـ تعالى ـ ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله ... وهذا حكم عام في الشرائع كلها". (٢)

ويجوز أن يكون التنكير هنا للتعظيم بجانب التعميم، أي تعظيم كل نفسٍ سعت وحاولت وبذلت قصارى جهدها في عمل الخير دون أن تتوانى أو تتكاسل أو تتغافل، وفي ذلك إشارة إلى الحث على السعي والحركة والأخذ بالأسباب وإدراك الحجب التي تكون حائلًا بين النفس وبين ما تريد وترغب الوصول إليه ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ (٣)، وفي ذلك تطييب لقلب المعسر وترغيب له في بذل المجهود.

وفي كلمة "وُسعَها" ـ بضم الواو ـ مجاز مرسل علاقته الإطلاق، "والوسع: الطاقة والاستطاعة، والمراد به هنا ما يطاق ويستطاع، فهومن إطلاق المصدر وإرادة المفعول". (٤)

---

(١) وقد فهمت هذا المعنى من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور وهو يقول: "قد عُدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بُني عليه المقول ابتداءً في قوله: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ...﴾؛ لما في هذا الاحتراس من الامتنان ..." (١٦٦/٨) .

(٢) التحرير والتنوير: (١٣٥/٣).

(٣) سورة التغابن: من آية (١٦).

(٤) التحرير والتنوير: (١٣٥/٣).

وكذلك نجد بين قوله : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وبين ما قبلها شبه كمال اتصال (وهو من أسرار الفصل) ويسمى استئنافًا بيانيًّا أيضًا، فسرّ فصل جملة (لا نكلف) عما قبلها هو الاستئناف البياني، إذ إنها جاءت جوابًا عن سؤال نشأ من الكلام السابق هو: هل يوجد عقاب لمن لم يقدر على الإيفاء بالزيادة بأن نقص دون عمد؟ فكان الجواب : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

هذا ويُبيّن الطاهر ابن عاشور سرّ تعقيب جملة " وأوفوا الكيل" بجملة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهو " أنها متعلقة بالتى وليتها فتكون احتراسًا، أي لا نكلفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبةِ والذرّة، ولكنا نكلفكم ما تظنون أنه عدل ووفاء، والغرض البلاغي من هذا الاحتراس: ألا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة فيفضى ذلك إلى تعطيل منافع جمة".(١)

إذن: جاءت جملة "لا نكلف نفسًا إلا وسعها" تعقيبًا وتذييلًا للاحتراس والتأكيد، والنفى هنا للتأكيد.

ثم قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾: هذه الجملة جاءت مصدرة بالواو الاستئنافية بعد جملة " لا نكلف نفسًا إلا وسعها" وعلى ذلك فإن قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ لا يدخل فيه الوسع؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالبًا.

وجاءت الأداة "إذا" دون "إنْ" لوجوب التثبت والتحقق من الخبر المقول، وفي ذلك إيجاز بحذف المفعول به للعموم والشمول وفى أسلوب الشرط دلالة على الترغيب وعدم مجاملة الأقارب عند الشهادة بالعدل، ثم يأتي فعل الشرط "قلتم" وجوابه "فاعدلوا" وهذا الشرط وجوابه يقضى اهتمام المخبِر والقائل بالقول المقول والتثبت فيه، ولذلك يجوز أن تطلق كلمة (العدل) مجازًا على الخبر الذي لا ينبغي أن يُشك فيه؛ لأن الخبر المقول قد يكون من شأنه التصديق والتكذيب، فإطلاق العدل من القول على الأخبار مجاز مرسل علاقته التلازم أي لزوم القول الصادق بقائله أو المخبِر بالمخبَر ليصير العدل

(١) التحرير والتنوير: (١٦٦/٨).

صفة لازمة له وسجية فيه غالبًا؛ وذلك حتى يكون القول العدل وبثه ونشره بالأدلة والبراهين والإقرار به حالة من حالات هذا الإنسان العادل أو فرد من أفراده لا ينفك عنه وليس بخارج منه.

كما أن التعليق بأداة الشرط في "وإذا قلتم" إشارة إلى أن المرء في سعة من السكوت إن خشى قول العدل، أما قول الجور والظلم فلا سعة فيه ولا سبيل إليه، وفى ذلك دلالة على أن من السكوت ما هو واجب، فقد ذُكر "أن رجلًا خطب إلى رجل أختَه، فذكر الأخُ أنها قد كانت أحدثتْ، فبلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب . ﷺ فضربه أو كاد يضربه، ثم قال له: مالك وللخبر؟".(١)

وتأمل قوله "فاعدلوا" تجد أن طلب الحق في القول جاء بصيغة الأمر بالعدل دون النهي عن الظلم أو نحوه؛ وذلك لأن التصدير بالقول في هذا السياق يوجب أن يكون المقول عدلًا أو غيره؛ "لأنه قيّده بأداة الشرط المقتضِى لصدور القول، فالقول إذا صدر لا يخلو من أن يكون حقًّا أو باطلًا والأمر بأن يكون حقًّا أوْفي بمقصد الشارع؛ لوجهين: الأول: أن الله يحب إظهار الحق بالقول، ففي الأمر بأن يكون عدلًا أمر بإظهاره ونهي عن السكوت بدون موجب، والثاني: أن النهي عن قول الباطل يَصْدق بالكلام الموجَّه الذي ظاهره ليس بحق، وذلك مذموم إلا عند الخوف أو الملاينة، أو فيما لا يرجع إلى إظهار حقّ".(٢)

---

(١) موطأ الإمام مالك: لمالك بن أنس، تعليق/ محمد فؤاد عبدالباقي، (٥٤٧/٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
ومعنى (أحدثت): زنت، (مالك وللخبر) : يعني أي غرض لك في إخبار الخاطب بذلك؟ لأن الفواحش يجب على الإنسان سترها . على نفسه وعلى غيره . والسكوت عنها تمامًا. (شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٢٤٩/٣، لمحمد عبدالباقي الزرقاني، تح/ طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط أولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

(٢) التحرير والتنوير: (١٦٨/٨).

ومن هنا نجد أن الفاء في "فاعدلوا" نتيجة لما سبق ، فضلًا عن الأسلوب الإنشائي، وهو أمر للنصح والتنبيه، كما حُذفت مكملات الجملة للعموم والشمول مثل ما كان فى "قلتم" قبلها.

والواو التي في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ هي واو الحال، ودخولها على "لو" يفيد المبالغة والاختصاص لما بعدها في شمول حكم ما قبلها، "والواو هنا تفيد المبالغة في الحال التي من شأنها أن يظنّ السامعُ عدمَ شمول الحكم إياها؛ لاختصاصها من بين بقية الأحوال التي يشملها الحكم".(١)

وهذا الكلام يعنى أن حالة قرابة المقول لأجله القول قد تحمل القائل على أن يقول غير الحقّ والعدل؛ لنفع قريبه أو مجاملته . مثلًا . فجاء التنبيه عن طريق ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾؛ حثًّا على وجوب التزام العدل في القول في تلك الحال، وعلى ذلك فإن الضمير المستتر في "كان" وهو اسمها عائد إلى شيء معلوم من الكلام تقديره: ولو كان المقول له ذا قربى، و(ذا) خبر كان، و"قربى" مضاف إليه، وهذا يسمى التعريف بالإضافة في قوله: "ذا قربى"، والغرض منه الدلالة على خطورة الأمر في القول، ومدى تأثيره (سلبًا أو إيجابًا، ظلمًا أو عدلًا) على الإنسان مما يشير ويوحي إلى وجوب تفشى العدل في القول والفعل بين الناس عامة، حيث إن القول كلمة قد تبنى وقد تهدم، وقد تصلح وقد تفسد، وقد تهدى وقد تضلّ، فالقول العْدل من رضوان الله يكون سببًا في فوز صاحبه بسعادة الدارين.

وفي "ذا قربى" كناية أيضًا عن المجاملة والمحاباة؛ لأنه قد يُظن أن الميْل إلى الأقرباء أوْلى وأنه حق واجب، فجاء التعبير القرآني نافيًا هذه الخصوصية المفهومة من وجهة القرابة بعد العموم في قوله "فاعدلوا"، حيث جاء الأمر بالعْدل في القول والفعل على وجه العموم ـ عموم الناس دون اجتزاء أو خصوصية ـ ، ثمَّ خصّ من هؤلاء الناس "ذا قربى"؛ لأهمية الأمر

(١) التحرير والتنوير: (١٦٧/٨).

وخطورته، وإيذانًا بالصدق في القول وتحّري العْدل بين القريب والبعيد، والحبيب والصديق دون مجاملة على حساب الدين، وفى الجملة أيضًا: إطناب بالاعتراض للاحتراس؛ لبيان وجوب العدالة مع الجميع؛ حفاظًا على أمن المجتمع وسلامته، وذلك قمة العهد بالوفاء الذي قطعه الله عليكم في قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، وهذا يشير إلى دقَّة ارتباط الألفاظ ببعضها، وأنها كلها تأخذ بحُجَز بعض بنسب وصلة، وعلى ذلك فإن كلمة (فاعدلوا) تعنى العدْل في كل ما ورد من وصايا وتشريعات، وأوامر ونواهي (نفى القربان عن مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسًا إلا وسعها)، وكأن جملة "فاعدلوا" جاءت إجمالًا بعد تفصيل، ثم تأتي الجملة "وبعهد الله أوفوا" عقيب الأمر بالعدل؛ لأن كل ما أمر الله . تعالى . به ونهى عنه هو من العهد والعدل، ومن ثَمّ فإننا نلاحظ تكرار (العدل) بلفظه ومفهومه في الآية؛ إشارة إلى أهميته في حياتنا، وحرصًا على نيل ثوابه في الآخرة، لأن مَنْ فعل ذلك اتقى الله وخافه، وذكر الإمام البقاعي أن الآية اشتملت على ثلاثة معانٍ للعدْل فقال : "ثم ثلَّث بالعدل هنا؛ لأنه هو الحكم على الأموال وغيرها".(١)

وفي ذلك بيان وتمام جمال وإعجاز القرآن في التناسق البديع، ودقة التلاحم بين ألفاظه ومعانيه، وكيف لا؟ والقرآن الكريم " يقوم بهذه الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم".(٢)

ثم قوله:﴿ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ﴾: وهنا قصر صفة على موصوف، وجاء القصر بتقديم متعلق الفعل (الجار والمجرور؛ لأنه متعلق بما بعده) على عامله، والمقصور: الوفاء، والمقصور عليه: عهد الله، وقّدم المتعلق؛ للاهتمام

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : (٣١٩/٧).

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم: للإمام الخطابي، ص٢٧ ، تحقيق/ محمد خلف الله أحمد، د/ محمد زغلول سلام ، ط. دار المعارف ، مصر، ط(٤)، ١٩٥٦م.

به والاعتناء بشأنه، وصرف ذهن السامع إلى التمسك بأمر العهد؛ "ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء وأنتم قد اخترتموه". (١)

كما جاء تقديم العهد هنا لدلالة أخرى تُفهم من الآية بعدها ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ...﴾ وهى إن عهد الله هو السبيل إلى النجاة وإلى صراط الله المستقيم، وفى ذلك إشارة إلى تجنب أي عهد آخر . غير عهد الله . يكون فيه ظلم وضلال مبين .

إذن: جاء أسلوب القصر هنا بتقديم شبه الجملة على الفعل؛ للاهتمام به والتنبيه عليه، ولبيان أهمية الوفاء بعهد الله، والأمر فيه للحث والنصح.

وجاء التعريف هنا بالإضافة في "عهد الله"، وهي إضافة العهد إلى الاسم الجليل؛ إشارة إلى إقامة العهود والوفاء بها وعدم نقضها أو نبذها، وفي ذلك حث على تعظيم المضاف؛ إظهارًا لكمال العناية به والاهتمام بشأنه، فهي إضافة تعظيم وتشريف وتكريم لهذه العهود، مما يستوجب الحفاظ والإقبال عليها.

"ويصح أن تكون الإضافة هنا إضافة المصدر إلى الفاعل، والتقدير: ما عَهِد الله به إليكم من الشرائع، ويصح أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أي ما عاهدتم الله أن تفعلوه، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي العهد الذي أمر الله بحفظه وحذّر من نقضه، ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عُدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل تشريفًا وتعظيمًا، وحثًّا على الالتزام بالوفاء بما عاقدوا وعاهدوا الله عليه". (٢)

كما نجد بين جملة (وبعهد الله أوفوا) وبين الجملة قبلها (وإذا قلتم فاعدلوا) سرًّا من أسرار الوصل، وهو "التوسط بين الكمالين"، فقد وصلت

(١) التحرير والتنوير: (١٧٠/٨) .
(٢) التحرير والتنوير: (١٧٠/٨) .

الجملة الثانية بالأولى وعطفت عليها، واتفقتا في الخبرية، والتناسب بينهما واضح وهو (الإيفاء في كلٍّ)، فالإيفاء في العدل عهد، والإيفاء بالعهد عدل، قال الزجَّاج: "كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من عهد الله".(١)

وكلا العدل والعهد صفتان جامعتان لكل السجايا الحميدة والخلال الكريمة، وهما طاعتان تقربان من الله ورضوانه في الدنيا والآخرة، فإثبات مفهوم كل من الجملتين مقصود في ذاته.

وأما السّر في أن الله . تعالى . ختم الآية بالعهد؛ فلأن العهد كلمة جامعة لكل وصية من الوصايا المتقدمة من : النهي عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم الأمر بالإيفاء بالكيْل والميزان بالقسط، ثم الأمر بالعدل . قولًا وفعلًا .، وهذا معناه أن كل وصية من هذه الوصايا عهد أو هي ضمن ميثاق الله وعهده.

ثم قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ جاء التعريف هنا باسم الإشارة "ذلكم"، وهي للبعيد؛ للدلالة على تعظيم هذه الوصايا، وبُعد منزلتها في الفضل، ورفعة قدْر من يتمسَّك بها.

وقد فُصلت جملة "ذلكم وصاكم به" عما قبلها لكمال الاتصال؛ وذلك لأنها تنزل مما قبلها منزلة التوكيد المعنوي، إذ إنه يلزم من مفهوم الوصية في آخر الآية الجمع والإجمال، فقد جمعت وأجملت كل ما تقدم تحت لفظ "الوصية" شرحًا وتفسيرًا، وكلها وصايا تلزم المخاطبين التذكرة بها والعمل بمضمونها؛ تقربًا إلى الله ورضوانه.

وجاء التعبير في الوصية بصيغة الماضي "وصَّاكم" للتحقيق والثبوت، أي ثبوت هذه الوصايا في شريعة الله ومنهاجه، وهي غير قابلة للنقاش والجدال، وفي ذلك إشارة إلى وجوب التكليف والإلزام بها، وإيجاب المحافظة

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: للواحدي، تح/ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، ط (١) ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، (١٠٧/٣).

على ما كلفوه، ثم جاء حرف (الصاد) في الوصية مشددًا؛ للدلالة على تأكيد الطلب، واللام في قوله "لعلكم تذكرون" للتعليل، أي لأجل أن تتذكروا ما عليكم من حقوق وواجبات تجاه هذه التكاليف فتقوموا بها خير قيام.

وقد خُتمت هذه الآية الكريمة بقوله "تذكَّرون" بينما خُتمت التي قبلها ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ بقوله "تعقلون"، ثم ختمت آية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ...﴾ بقوله "تتقون" مع تكرار الوصية في الآيات الثلاث، وهذا يشير إلى أن كل وصية خاصة بذاتها لفظًا وسياقًا وموقفًا ومقامًا، فالسياق في "تذكرون" جاء مناسبًا لأن تختم الآية التي معنا بها؛ "لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها، فنهاهم ـ سبحانه ـ لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويذكروها، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيْل، والعدل فى القول، والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به، فأمرهم الله ـ تعالى ـ بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان".[1] فكان هذا التذييل وهذا الختام للآية فى منتهى الدقة والروعة، ففيها إجمال بعد تفصيل سابق، وهذا ما أوحت به كلمة "تذكَّرون"، كما أنها خُتمت بهذا اللفظ؛ لأن المطالب الأربعة فى الآية عرفت عند العرب من المحامد، فجاء الأمر بها والتحريض عليها تذكيرًا بما عرفوه بالفطرة ونسوه بالشهوة التي غلبت على نفوسهم وجعلت غشاوة الشرك على قلوبهم .

ويبين الإمام البقاعي سرّ اقتران التذكرة بالوصية قائلًا: "لأنها ـ أي الوصية . تحتاج إلى مزيد تدبر وتذكر ولو على وجه خفي فتحكموا لغيركم بما تحكمون به لأنفسكم".[2]

(١) روح المعاني / للألوسي، (٢٩٩/٤) .
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٣٢٠/٧).

فالوصية هنا متعلقة بالحقوق المالية والقولية، وحينئذ يكون المعنى: "لعلكم تذكرون في أنفسكم أن لو كان الأيتام أولادكم وكنتم أنتم المقايضين لأنفسهم ما يكال أو يوزن، أو المشهود عليهم؛ أو المقر لهم، أو الموعود، أكنتم ترضونه لأنفسكم؟ فما لا ترضونه لأنفسكم لا ترضونه لغيركم".(١)

وهذا يعني لنا أن السياق في "لعلكم تذكّرون" جاء خفيًّا غامضًا يحتاج إلى مزيد تدبّر ودقّة تأمل وإمعان نظرٍ، فالتكليفات فيها قد تكون خفية على الإنسان إلى اجتهاد وفكر أكثر وأعمق للوقوف عليها وتدبر ما فيها حتى يقف على موضع الاعتدال والعدل فيها، ولا ريب في أن كل ذلك لا يكون في وقت واحد، بل أوقات متعددة يذكّر فيها نفسه بهذه التكاليف، لذا جاءت الصيغة في التذكرة بالمضارع "تذكرون"؛ للتجدد والاستمرار في أن يذكّر بعضهم بعضًا كلما خفي عليهم أمرها، أو غفلوا عنها؛ تجديدًا للعهد، وتوكيدًا لإيجاب المحافظة على ما كلفوه من وقت إلى آخر، مما يدل على أن الجملة الاسمية التي جاءت في ختام الآية وضعت لتقريب القبول إلى القلوب؛ لما في ذلك من اللطف والشفقة والرحمة، أما السياق في "لعلكم تعقلون" فقد جاءت الوصايا والتكاليف فيه واضحة بحيث تحتاج إلى تفهم وتعقل فقط، كما ذكر الألوسي في نصه السابق.

أما الوصية في آية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾ فقد ختمت بـ "تتقون"؛ لأن التكليف فيها جاء بصيغة الأمر الخاص بالسلوك والدعوة، والبُعد عن الضلالات، واجتناب البدع والشبهات، وهذا أمر يدعو المخاطب إلى تقوى الله . ﷻ . والتمسك بصراطه وسبيله، "ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر . سبحانه . باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني: أبو عبدالله بدر الدين الحموي الشافعي، صـ١٧٠، تح/ د عبدالجواد خلف ، دار الوفاء . المنصورة . الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار؛ إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية".[١]

والناظر في سياقات الآيات الثلاث وأساليبها يتبين له أنها جاءت، في سلسلة بديعة متسقة النظم (جمعًا ودلالةً وفاصلةً)، فقد جمعت فأوعت، دالة على أخذ الحيطة والحذر؛ خشية الوقوع في المحذور، **وقد جاء السياق في الآيات مترابطًا من وجوه منها :**

أولًا: أنه . تعالى . بعد أن بيّن المحرمات من المطعومات؛ ردًّا على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم، أردفه ببيان أصول المحرمات المعنوية (الأدبية) والمادية (قولًا وفعلًا). [٢]

ثانيًا: تكرار أسلوب النهي، فقد ذكر الزمخشري :"والشرك وما بعده داخل في حرف النهي، واشترك الجميع تحت حكم التحريم من الإساءة إلى الوالدين، وقربان مال اليتيم، وبخس الكيْل والميزان، وترك العْدل في القول، وترك عهد الله من إملاق من أجل فقر ومن خشيته".[٣]

ثالثًا: ما ذكره البقاعي . رحمه الله . بين قوله ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ... ﴾ وبين قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾: "ولما كان المال عديل الروح من حيث إنه لا قوام لها إلا به، ابتدأ الآية التي تليها بالأموال، ولما كان أعظمَها خطرًا وحرمةً مالُ اليتيم . لضعفه وقلة ناصره . ابتدأ به فنهى عن قربه فضلًا عن أكله وشربه".[٤]

---

(١) روح المعاني : للألوسي، (٣٠٠/٤).

(٢) التفسير المنير: د. وهبة الزحيلي، (٩٣/٨) .

(٣) الكشاف / للزمخشري (٧٩/٢) دار الكتاب العربي، بيروت ، ط (٣)، ١٤٠٧هـ.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٣١٨/٧).

رابعًا: إقامة العهد، حيث إن كل ما في هذه الآية وما قبلها من وصايا إنما هو من عهد الله وميثاقه، "ثم ختم بالعهد؛ لجمعه الكل في القول والفعل".(١)

خامسًا: تكرار لفظ "الوصية" هنا وهناك؛ وذلك لمزيد التأكيد، وعظم ما كلف به الإنسان، وأهمية هذه الوصايا في حياة المجتمع المسلم، كما أن من فوائد التكرير دقة التحري في هذه الوصايا؛ طمعًا فى حصول الثواب، وتحذيرًا وخوفًا من العقاب، وفي التكرار إيذان بالتذكرة "لعلكم تذكرون"، وهذا بعد فقهها وتفهمها وتعقلها "لعلكم تعقلون"، ثم تأتى الغاية العظمى من تلك الوصايا الجامعة، وهي التقوى "لعلكم تتقون"؛ لأن من فعل ذلك ملتزمًا بما كلف به من طاعة وزلفى وقربى إلى الله . ﷻ ـ اتبع الصراط المستقيم، وانتهج المنهاج السليم الذي لا خلل فيه ولا عوج ولا ضلال؛ رجاء التقوى والخوف من عقاب الله في الآخرة.

وهذا كله دليل على أنه ثمة إعجاز بلاغي يظهر في روعة التناسب ودقة التلاحم بين آيات القرآن الكريم وسوره، "فعلم المناسبة من أجل علوم القرآن، وأدلها على إعجاز بيانه وارتباط آياته وسوره، وهو علم يعرف منه علل الترتيب، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال".(٢)

هذا ومما يبهر في ارتباط الآيات ببعضها تلك الفواصل التي خُتمت بها(٣)، وانظر قوله (تعقلون، تذكّرون، تتقون) تجد أنها جاءت جميعًا على وزن

---

(١) السابق نفسه، صـ (٣٢٠).

(٢) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: د/ محمد أحمد يوسف القاسم، صـ٣١، ط (أولى)، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٣) الفواصل جمع فاصلة، والفصل يكون بين شيئين متصلين لغة ومعنى، "وهي الكلام المنفصل مما بعده، وقد يكون رأس آية وقد لا يكون، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي، وسميت بذلك؛ لأن الخطاب ينفصل عندها" ظ/ مباحث في علوم القرآن: د/ منـاع القطـان، صـ ١٥٣، مؤسسـة الرسـالة، بيـروت، ط (٣٥)، ١٤١٩هـ/=

واحد وصيغة واحدة دالة على التجدد والاستمرار والثبات في التعقل والتذكر والتقوى، وفي ذلك دلالة على أن مراعاة الفواصل بين الآيات القرآنية أمر معجز في حد ذاته، حيث من خلالها تتكشف أوجه الاعتلاقات والروابط بين الآيات.

=١٩٩٨م.

وهذا يعنى أن للفاصلة وظيفتها في كتاب الله . ﷻ، فهي واقعة في آخر الكلام لتتمم معناه، ولتفصل سياقه عما سواه مما يلحقه ويتبعه من آيات، فكل فاصلة في مكانها إعجاز: "حيث تأتي كل فاصلة في مكانها مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقة بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا، بحيث لو طرحت الفاصلة جانبًا لاختل المعنى واضطرب الفهم" : البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل . بيروت . سنة ١٩٨٨م، (٧٩/١) .

وهذا معناه أن كل فاصلة تأتي في القرآن ممهدة لما بعدها من معان وأغراض ومقاصد، مما يؤدي إلى تماسك الآيات كأنها لحمة واحدة ونسيج واحد لا ينفصل بعضه عن بعض.

الموضع الثاني : قوله . تعالى . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

المعنى العام:

ينهى الله . ﷻ في هذه الآية كل وصي أو ولي عن إتلاف مال اليتيم وعدم القربى منه إلا بما يحقق الفائدة أو المصلحة الظاهرة لليتيم، وهي الطريقة الأحسن والأمثل في تثمير ماله حتى يبلغ ويرشد سنه ماديًّا ومعنويًّا، أي يبلغ مبلغ الرجال فيقوى جسده ويشتد بنيانه ويستوى عوده، فضلًا عن اكتمال واستواء ونضج عقله وزوال أي سفه عنه يؤدي إلى فساد ماله.

ثم يأمر الله . تعالى . بعد ذلك بالوفاء بالعهد، سواء العهد بالكلمة مع الله، أو العهد الموثق الذي يتعامل به مع الناس، أو العهد مع النفس، وفي كل عهد من هذه العهود عهد يلزم صاحبه السؤال عنه يوم القيامة، "ونظر هذا العهد تجده في قول الله: ﴿يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوااأَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (٢)، فالعهد فضيلة وميثاق، والعقد التزام وارتباط، والإخلال بالعهد خيانة ونفاق، ... فمن أخلف بوعده ولم ينفذ التزام عقده وقع في الإثم والمعصية وأخل بمقتضى الإيمان والدين، والعهد أمر عام يشمل كل ما بين الإنسان وبين الله والنفس والناس" . (٣)

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن انتهى السياق من حرمة العِرْض وحُرمة النفس تحدث عن حرمة المال وحرمة العهد والميثاق؛ وذلك أن الإسلام يحفظ على المسلم دمه

(١) سورة الإسراء، آية رقم (٣٤) .
(٢) سورة المائدة ، من آية (١).
(٣) التفسير المنير: (٧٣/١٥) .

ومالـه وعرضـه؛ لقولـه ـ ﷺ ـ: "كـل المسـلم علـى المسـلم حـرام دمـه ومالـه وعرضه"(١)، لكن يبرز النهي هنا في مال اليتيم لضعفه وعجزه وسوء تدبيره.

ومعنى ذلك أنه . تعالى . لما ذكر النهي عن إتلاف النفوس أتبعها بالنهي عن إتلاف الأموال؛ (لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال) وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم؛ لأنه أحق الناس بالنهي عن إتلاف ماله؛ لصغره وضعفه وكمال عجزه، ولأنه يعظم ضرره بإتلاف ماله، ولهذا السبب خصّهم الله . تعالى . بالنهي عن إتلاف مالهم، يقول الإمام البقاعي: "ولما نهى عن الإغارة على الأرواح والأبضاع التي هي سببها أتبعه النهي عن نهب ما هو عديلها؛ لأن به قوامها، وهو الأموال، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكه، فقال ـ تعالى ـ:﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . .﴾".(٢)(٣)

التحليل البلاغي :

بدأت الآية القرآنية هنا بالأسلوب الإنشائي وطريقه "النهي" في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾، وغرضه الزجر والوعظ والإرشاد . كما هو مفهوم ومعلوم ـ حيث إن المنهي عنه كان من أحوال الجاهلية، فكانوا يستحلون أموال اليتامى؛ لضعفهم عن التفطن لمن يأكل أموالهم، فكأن النهي هنا جاء على سبيل التحذير والتخويف من ذلك؛ حتى لا يبقى راسب أو أثر من آثار ورواسب الجاهلية عالقًا في أي نفس من النفوس البشرية، "وهذا النهي جاء منبهًا على هذا الخطر الذي يتهدد من يقرب مال اليتيم ويطوف بحماه حيث نوازع النفس إليه ودواعي الطمع فيه، إذ لا قدرة لصاحبه على دفع يد من يريده

(١) صحيح مسلم: الإمام بن الحجاج النيسابوري، تح/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. والحديث أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم (٢٥٦٤) ، ١٩٨٦/٤.

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٣٤).

(٣) نظم الدرر: (٤١١/١١) .

بسوء".[١] فالمراد بالنهي هنا. إذن . التهديد والوعيد لمن لم يلتزم ويتمسك بتقاليد الجاهلية، وإما أن يُراد به الوعظ والكف والزجر لمن يختلط عليه الأمر فيعلق في نفسه شيء من الطمع والدناءة، "وقد عهد القرآن الكريم إلى استخدام صورة النهي؛ لتواجه النفس بها فتكون أكثر تأثيرًا وكفًّا وزجرًا".[٢]

ونفهم من كلام شيخنا الدكتور/ أبى موسى أن النهي هنا عن قربان مال اليتيم وغير مال اليتيم، لكن الله . تعالى . ذكر مال اليتيم على الأخصّ؛ ليكون ذلك أفعل في نفسه وأدعى إلى الامتثال من حيث ميْل النفس إلى الرغبة في حفظ حرمة أموال اليتامى، ولذا جاء التعبير القرآني هنا بالنهي عن القرب دون سواه؛ مبالغة في الزجر، وتعظيمًا للمقام، وتخويفًا من كل سبب يجرّ إلى اعتداء عليه . مال اليتيم . أو إتلاف له، ومن أجل ذلك ترى أن المقام هنا أبلغ . لهذا الغرض . من قوله . تعالى . في سورة النساء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾[٣].

وفي أسلوب القصر هنا بالنفي والاستثناء إشارة إلى أن الله . تعالى . لا ينهي عن القربان من مال اليتيم فحسب، وإنما جاء هذا الأسلوب ليرمز إلى أن القربان من مال اليتيم بغير التي هي أحسن غير جائز، ويؤخذ من ذلك جواز القربى من مال اليتيم بما فيه مصلحته، وذلك مقابل الجهد الذي بذل فيه، والأمانة التي عاهد عليها الله بالحفظ والصيانة، لقوله . تعالى .: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٤].

(١) التفسير القرآني للقرآن: عبدالكريم يونس الخطيب، (٤٨٦/٨) . دار الفكر العربي . القاهرة (بدون تاريخ).

(٢) دلالات التراكيب: أ. د/ محمد أبو موسى، صـ ٢٥٨، مكتبة وهبة . الطبعة الثانية . ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م، دار التضامن . القاهرة .

(٣) سورة النساء: من الآية (٦) .

(٤) سورة النساء: من الآية (٦).

فجملة " ولا تقربوا" . إذن . فيها استثناء مفرغ من جميع الأحوال، أي لا تقربوه بحال من الأحوال إلا بالطريقة التي هي أحسن.

وفي الجملة . أيضًا . كناية عن ملابسة مال اليتيم والتصرف فيه، "ولما اقتضى هذا تحريم التصرف في مال اليتيم، ولو بالخَزْن والحفظ، وذلك يعرض ماله للتلف، استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي إلا بالحالة أو الخصلة التي هي أحسن"(١) .

ولا ريب في أن النهي عن الشيء يشير إلى قوة اتصاف المنهي به في نظر الناهي، فالأليق به أن يكون الرد عليه مؤكدًا مبالغًا فيه، وذلك ما يفيض به القصر ويزيده أن كان القصر هنا بالنفي والاستثناء، وهو الأليق بحال الناهين، فكان فيه من المبالغة ما فيه.

وتلاحظ أن النهي جاء مُصَدَّرًا بالواو العاطفة، حيث عطفت ما بعدها على ما قبلها من وصايا، وهذه الواو تجد لها في النظم القرآني إيحاءً يشير إلى شيء من الترتيب والأسبقية في الذكر حسب السياق والمقام، وتكررت الواو في كل هذه الوصايا نصًّا على إرادة الالتزام بكل من الأوامر والنواهي على حدة.

إذن: جاءت الواو في "ولا تقربوا" للعطف على ما قبلها من وصايا وتكاليف، ومع ذلك تكون ذات دلالات متعددة، فقد خرجت من فكرة التشريك في الحكم إلى دلالات أخرى من المعاني، والفيصل في ذلك هو السياق والمقام، ومع التأمل نجد أن السياق هنا جاء بصيغة النهي عقيب أوامر ونواهي تقدمت عليها وسبقتها في الذكر، مثل: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾، ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾... إلخ، وذلك لأن ما سبقها من معانٍ وألفاظ هو أعلاها ذكرًا وأولاها تقدمًا في الرتبة، فكأن المتقدم هو الأصل في الشريعة، والممهد لما

(١) التحرير والتنوير : (١٦٣/١٨).

سيأتي بعد ذلك من فروع ومسائل تندرج تحته من بيان حلّ أو حُرمة، وجائز وغير جائز، وواجب وفرض، ومكروه ومستحب ... إلخ، وكل ذلك تراه ملتصقًا بما قبله لصوق الصفة بالموصوف، وفي ذلك دلالة على أن المخاطبين مع كل واو في الوصية مسئولون مسئولية تامة عن كل وصية ومضمونها على حدة، وكأن الواو في كل أمر أو نهي من هذه التكاليف المذكورة فيها شوب من المغايرة والاستئناف من حيث المعنى، أما من جهة عطفها فكأنك ضممت كل وصية إلى أختها وجارتها في إثبات واحد (هو الأمر أو النهي)، وحُكم واحد وهو السؤال عنها يوم الدين للحساب والجزاء؛ لأنها كلها داخلة في العهد الذي جاء في ختام الآية ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾، والعهد صفة جامعة لكل الأقوال والأفعال والصفات، كما أننا نفهم من هذه الواو . أيضًا . الجمع بين كل وصية وأخرى في قلب المخاطب؛ ليظل القانون الإلهي بأمره ونهيه في وجدان المسلمين بمنأى عن المخالفة فتظل درجة الحكم والجزاء واحدة في الكل، وعلى أساس ذلك " يرى كثير من البلاغيين أن الواو لا تفيد إلا مطلق الجمع وتشريك ما بعدها للحكم بما قبلها، ولذلك يقف عندها البلاغيون لإدراك الأسرار الخفية في مجيئها أو عدم مجيئها في الكلام ...".(١)

كما يُلحظ في الآية الكريمة أنها جاءت مصدرة بصيغة الجمع في "ولا تقربوا" وهذا مما يلفت النظر ويسترعى الانتباه، خاصة وأنها جاءت مختلفة النظم عما قبلها من حيث الإفراد والجمع، وانظر . مثلًا . إلى قول الحق . سبحانه .: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾، وقوله: ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ تجدها جميعًا مبتدئة بالمفرد، والسر في ذلك أن الوصايا التي جاءت بصيغة الجمع لا يمكن تحققها إلا بأكثر من شخص

(١) من بلاغة حروف المعاني في النظم القرآني: د/ بدر عبدالعال حسين محمد، بحث نُشر في مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية ، السنة الثانية، العدد (٣)، ١٤٣٥هـ ، صـ٤٨٦ .

كقتل الأولاد (بين الأب وابنه)، وكقتل النفس(بين القاتل والمقتول)، وكذا مال اليتيم لا يكون إلا بين اليتيم والولي أو الوصي عليه أو القريب الذي يتولى أمره، وكذا الزنا لا يكون إلا بين رجل وامرأة، وكذا الكيل والميزان فيكون بين فرد وجماعة، إذن : كلها أمور وعمليات لا تتم إلا بين آخذ ومعطٍ، لذا جاءت الصيغة فيها بالجمع، أما ما جاء بالإفراد فهو من أمور وشئون تخص الإنسان وحده لا يكاد يطلع عليه أحد سواه، فهو المتصرف فيها على وجه خفي بينه وبين نفسه، يقول الشيخ/ سيد قطب؛ "إن الأوامر والنواهي في التكليفات السابقة جاءت بصيغة المفرد؛ لما لها من صيغة فردية، وبصيغة الجمع؛ لما لها من صيغة جماعية، وجاء النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن في صيغة الجمع؛ لتكون الجماعة كلها مسئولة عن اليتيم وماله، فهذا عهد عليها بوصفها جماعة".(١)

ومعنى كلام الشيخ . رحمه الله . أن الوصية باليتامى ذات مسئولية محددة، تقوم بالحقوق والواجبات على مستوى الفرد والجماعة، لذا جاء الخطاب عامًّا لكل من ولي أمر اليتيم بموجب الولاية أو الوصاية.

وتلحظ أن جملة "ولا تقربوا" ونظيرها في التعبير القرآني بالأمر أو النهي "فيها وعظ وهداية وإرشاد وإصلاح وتهذيب وتوجيه لكل نفس، وهذه المقاصد المتباينة والأهداف المختلفة عبَّر عنها القرآن بأفضل الطرق وأقومها وهي طريقة (التصوير والتشخيص) سواء كانت المعاني ذهنية أو غير ذهنية، وفَضْل هذه الطريقة على غيرها معروف؛ لأن المعاني فيها لا يخاطب بها العقل وحده، بل تشترك معه كل قوى الإدراك . السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق ـ والعواطف والشعور والأحاسيس، فحين يخاطب الناس بهذه الطريقة

(١) في ظلال القرآن: الشيخ سيد قطب (٢٢٢٦/٤) . دار الشروق . بيروت . القاهرة . ط١٧، ١٤١٢هـ .

يصبح الإنسان بكل شعوره ووجدانه وحواسه آلة إدراك وتذوق وتأمل لكل ما يؤمر به أو ينهى عنه". (١)

قوله: ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾: جاء التعبير بصيغة أفعل التفضيل في كلمة "أحسن"؛ تنبيهًا على أن يتحرى في ذلك غاية التحري، ويفعل ما يراه أحسن وأفضل لذا جاء القربان مفيدًا بالتى هي أحسن.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ ﴾: هذه الجملة هي الغاية التي من أجلها جاء النهي عن قربان مال اليتيم، وكأنها توضيح بعد إبهام جيء بها لأمن اللبس على الأذهان والأفهام ؛ لئلا يتوهم أن النهي عن القربان جاء فيما يصلح أو يفسد على الدوام؛ "لأنه يجوز لولي اليتيم أن يفعل في ماله ما يصلحه، وذلك يستلزم مباشرته لكن بقيد (حتى يبلغ اليتيم أشده) فإذا بلغ أشده كان لكم أن تدفعوه إليه أو تتصرفوا فيه بإذنه؛ لأن التصرف له حينئذ".(٢)

فالجملة . إذن . جاءت قيدًا موضحًا لما قبله "ولا تقربوا مال اليتيم" فهو ليس على الدوام، فجاءت هنا إيضاحاً للإبهام الذي تضمنته جملة النهي؛ لزيادة تقرير المعنى وترسيخه في ذهن السامع مرة عن طريق الإبهام، ومرة عن طريق الإيضاح.

وقوله: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾: جاءت الواو عاطفة ما بعدها على ما قبلها؛ لأن كلمة "العهد" جاءت مجملة لكل ما سبق من تكاليف، ومنها التحذير من التجرؤ على أموال اليتامى، ولما كانت الوصية هذه نوعًا من أنواع العهد أمر الله . تعالى . بالوفاء لكل ما يتوقف عليه الأمر المعاهد عليه ويتعلق به، فكانت هذه الواو جامعة ورابطة للمناسبة القوية

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د. عبدالعظيم المطعني، صـ ٤٥٩، مكتبة وهبة، رسالة دكتوراة مطبوعة، الجزء الأول، ط أولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢.

(٢) فتح القدير: لمحمد بن على الشوكاني (٢٦٩/٣)، دار ابن كثير ، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط أولى ، سنة ١٤١٤هـ.

بين الوفاء بالعهد والإيصاء بمال اليتيم، "ولما كانت الوصية نوعًا من أنواع العهد أمر بوفاء ما هو أعم منها فقال : (وأوفوا)". [1]

وفي الجملة أسلوب إنشائي فى "وأوفوا" جاء على صيغة الأمر، وسره البلاغي النصح والإرشاد والتوجيه لكل مخاطب من المؤمنين، وفي ذلك دلالة على العناية بالفعل وعموم الأمر وذيوعه، حتى كأن كل فرد من أفراد هذه الأمّة مطالب بهذا الإيفاء.

كما تشم . أيضًا . رائحة التهديد والزجر والوعيد لمن يخالف الأمر، بدليل قوله بعد ذلك: (إن العهد كان مسئولًا)، وفي ذلك حث على وجوب الالتزام بالوفاء بالعهد، والنهي عن مخالفته وإفراطه وتفريطه، ثم تأتي كلمة "مسئولًا" وكأن فيها إيحاءً بالشعور بالمسئولية نحو ما أمر الله . تعالى . به أو نهى عنه، وفي الخروج عن الأمرين مهلكة وضياع.

وفي كلمة "أوفوا" مجاز مرسل بعلاقة اللزوم؛ لأن الإيفاء بالعهد يلزمه التطبع والتشمر له؛ ليكون سجية في صاحبه وملازمًا له على الدوام بشأنه.

أما كلمة "بالعهد" فاللام فيها يجوز أن تكون للعهد، وهي التي عهد مصحوبها بتقديم ذكره، وذلك لإطلاقها على كل أنواع العهد المنتظم، ويجوز أن تكون للجنس فتشمل جميع أنواع العهد (مع الله، مع النفس، مع الناس)، وتفيد حينئذ الاستغراق بقرينه صيغة الجمع في (أوفوا).

والباء في قوله: (بالعهد): "جاءت للفرق بينه وبين الإيفاء الحسي كإيفاء الكيل والوزن"[2]. فقال "بالعهد" ولم يقل "في العهد"؛ ليلتبس المحافظ على العهد به كليةً دون تجزئه.

كما ترى في كلمة "العهد" هنا إجمالًا بعد تفصيل؛ لأنه . تعالى . لما نهى عن ثلاثة أشياء وهي الزنا والقتل وأكل مال اليتيم، اتبعها بقوله: "وأوفوا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (٤١١/١١) .
(٢) روح المعاني (٦٩/٨) .

بالعهد" أي العهد الذي تقدم وعاهدتم الله على فعل المأمورات وترك المنهيات أو عاهدتم الناس . ومنهم اليتامى . على فعلٍ أو قولٍ جائز.

وتلحظ أن بين هذه الجملة "أوفوا" وبين سابقتها "ولا تقربوا..." وصلًا غرضه التوسط بين الكمالين . كمال الاتصال وكمال الانقطاع .، وهذه الواو التي ربطت الجمل ببعضها لأغراض ودلالات" خصت دون بقية حروف العطف الأخرى لقيام باب الفصل والوصل عليها، وهو من أدق أبواب البلاغة العربية، وهذا الباب أكثر أبواب البلاغة ورودًا فى القرآن الكريم".(١)

ومن ثم فإننا نجد بين الجملتين السابقتين وصلًا، وسره: التوسط بين الكمالين، حيث إن الجملة الثانية وصلت بالأولى وعطفت عليها واتفقتا في الإنشائية، والتناسب بينهما واضح وهو الإشارة إلى أن الوصية باليتامى والحفاظ على أموالهم نوع من أنواع العهود وداخل فيه، فضلًا عن أن التقصير والإهمال نحو واجبات هؤلاء اليتامى أمر محرم شرعًا وهو نبذ للعهد الذي أمر الله به حين وصّى بهم خيرًا وجعل لهم مكانة سامقة وحفظ لهم حقوقهم، وكل ما كان مخالفًا لطاعة الله ورسوله أصبح محلًّا للمساءة؛ تحقيقًا للعدل والجزاء والعقاب الذي أوجبه الله وألزمه على كل ناقص وخائن للعهد.

كما تلحظ أن العهد ـ لأهميته والعناية به في حياة الفرد والمجتمع ـ تكرر في الآية؛ للتأكيد على الوفاء بالعهد؛ لأن الوفاء به مناط الاستقامة والثقة في ضبط الفرد والجماعة، ومما يزيد الأمر عناية واهتمامًا مجيئ "إنّ" المؤكِّدة ، وهي جملة سيقت للتأكيد على إيجاب الوفاء بالعهد، والتنبيه إلى أن العبث بهذا المال أو التفريط فيه أو العدوان عليه بأي شكل من الأشكال هو نقص للعهد الواجب وخيانة للأمانة التي اؤتمن عليها، وكأن التشديد في "إن" وثقلها إيحاء بثقل الأمر وخطورته وأهميته من ناحيتين: من ناحية الوفاء بالعهد، ومن ناحية النكير على من يغدر به، لذا جاءت كلمة "العهد" مكررة؛

(١) من بلاغة حروف المعاني فى النظم القرآني، صـ٤٨٦ .

لتقرير المعنى وتمكينه في ذهن السامع؛ لوقوع المسئولية عليه تامة إذا هو خالف ذلك.

كما أُظهرت "العهد" الثانية، وكان حقها الإضمار؛ "إظهاراً لكمال العناية بشأنه، أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود" (١)

ومن الملحوظ في جملة "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولًا" بتمامها أنها حاثّة على الأمر وداعية إلى امتثاله من أول الأمر؛ لوقوع "إن" المؤكدة فيها، وفي هذا التوكيد زيادة حث وترغيب؛ لأن الله ـ تعالى ـ لما قال: "وأوفوا" وأمر بالوفاء جاء بما يحث عليه مؤكِّدًا بإنّ؛ لأن توكيد هذه الجملة الدافعة إلى امتثال الأمر والحاثة عليه والتي تقوم من هذا الأمر مقام السبب والعلة أدخل فى بلاغة العبارة وقوة إبانتها، ولذلك تجد فصلًا بين الجملتين (أوفوا بالعهد)، (إن العهد كان مسئولًا) غرضه: شبه كمال الاتصال؛ لأن الجملتين اختلفتا خبرًا وإنشاءً، وجاءت الثانية استئنافًا بيانيًّا؛ إذ إنها جاءت جوابًا لسؤال نشأ من الكلام السابق تقديره: لماذا كان الوفاء بالعهد؟ فجاء الجواب معناه: لأن العهد مسئول عنه صاحبه، وسيجازى عليه بالثواب أو العقاب.

وكلمة "كان" في قوله: "كان مسئولًا" لها دلالة جيدة في الكلام؛ لأنه من المعلوم أن السؤال عن الشيء للجزاء والعقاب لا يكون إلا في الآخرة، فلم جاء التعبير بالماضي "كان" وكان حقه المضارع؟ وهو ما يسمي بلاغيًّا مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر، ومنه الالتفات أو العدول عن شيء إلى آخر لغرض أو سر بلاغي، كما في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ (٢)، إشارة إلى تقرير الحقائق ووقوعها لا محالة، يقول د/ أبو موسى: "والفعل

(١) تفسير أبي السعود: (١٧١/٥) . تأليف/ أبى السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ـ نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) سورة النحل : من الآية (١).

الماضي يعبّر عن الحدث المستقبل فينقله إلى الزمن الذى مضى، ووراء ذلك إشارات تختلف باختلاف السياق".(١)

والسياق الذي معنا في الآية يشير إلى العدول من صيغة المضارع إلى الماضي؛ لدلالة تحقق وقوعه، فهو لا محالة كائن وواقع، "وما دام الأمر كذلك فلا فرق بين الماضي والمضارع، فالماضي هنا يمثل أن الزمن قد طوي، وانظر إلى قوله . تعالى .:﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾، والقياس: يأتى، ولكن لما كان آتيًا لا محالة اعتبر كأنه قد أتى وأنه فعلًا قد أحاط بالحياة" . (٢)

ومن الملحوظ هنا أنك ترى في هذا العدول نوعًا من الترهيب، ودلالة على زجر النفس المتعلقة بالمعاصي، وتحريض النفس المؤمنة على التعلق بالطاعات والخوف من عقاب الله، وسرعة التحلل من كل معصية، والتعجيل بجلب كل ما ينفع ودفع كل ما يضر، "والقرآن الكريم يعرض كثيرًا من مشاهد القيامة في صور الماضي وكأنها أحداث وقعت؛ وذلك ليؤكّد كينونتها، وأن زمن الدنيا في حساب الحق كانه زمن قد انتهى ليواجه بهذا الأسلوب الحاكم دواعي الانصراف عن أمر القيامة". (٣)

ثم تأتي كلمة "مسئولًا" ويجوز فيها وجهان: أحدهما حقيقة السؤال وهو توجيه وإسناد السؤال عن العهد إلى صاحبه، وحينئذ يكون قد حذف حرف الجر من الكلام والتقدير: مسئولًا عنه، أي عن العهد المعهود، كما حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والتقدير: صاحب العهد، فالمسئول هنا هو صاحب العهد، والمسئول عنه: هو المطلوب الذى يطلب من المعاهد أن يفي به وألا يضيعه، أو مسئولًا عنه ليُجازى به.

(١) خصائص التراكيب: د/ أبو موسى، صـ ٢٦٥، مكتبة وهبة، ط٤، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
(٢) السابق: صـ ٢٦٦.
(٣) السابق: صـ ٦٦.

والوجه الثاني: أن في كلمة "العهد" استعارة مكنية، وهذا على أساس مرجع الضمير في "مسئولًا عنه" إلى العهد الذي سيُسأل، كأن يشبه العهد بمن نكث عهده، والقرينة استحالة أن يُسأل العهد، فهو . إذن . من باب التخيل، وذكر أبو السعود: "مسئولًا: أي مسئولًا عنه، وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعًا مستكنًا في اسم المفعول كقوله: "وذلك يوم مشهود" أي مشهود فيه ... ويجوز أن يكون العهد مسئولًا عن العهد المعهود من باب التخييل، كأن يقال للعهد: لم نكثت؟ تبكيتًا للناكث، كما يُقال للموؤودة بأي ذنب قتلت؟". (١)

وعلى ذلك ففي كلمة "مسئولًا" استعارة مكنية جرت على سبيل التمثيل، والسر في ذلك: تبكيت الناقض للعهد المعهود.

والاستعارة فيها إيحاء بأهمية الأمر "أوفوا بالعهد" ومنزلة التوكيد "إنَّ العهد" وتكرار العهد نفسه، كل ذلك جعله الله في الآية ليُرينا العهد كأنه صورة حية ترى وتعقل ما كان من أصحابها من نقضٍ أو وفاءٍ، فإنْ هي سئلت أجابت وكشفت عن حالها مع أصحاب الغدر أو الوفاء، وكأنك ترى حوارًا ماثلًا بين شخصيْن (عهد وعهد)، أحدهما يّتسم بالوفاء، والآخر يؤخذ عليه الغدر والخيانة، فيأخذ صاحب كل عهد يسأل عهده الخاص به إن وفاء فوفاء وإن غدرًا فغدرًا، وكلٌّ يجازى على حسْب سؤله، وفي ذلك دلالة على أن كلمة العهد كلمة مطلقة على كل ما من شأنه طابع الوفاء بالعهد أو العكس.

"وسؤال العهد هنا تخييل، وهذا داخل فى باب التجسيم المعنوي أو الصورة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، ثم الارتقاء بالصورة التي رسمها القرآن فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا أضيفت الحركة إلى الحوار فقد استوت كل عناصر التخييل".(٢)

---

(١) تفسير أبي السعود/ (١٧١/٥).

(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم: للشيخ/ سيد قطب، صـ٣٦، ٧١. دار الشروق . الطبعة (١٧) .

ويقول الإمام البقاعي: "ولما كان العلم بالنكث والوفاء متحققًا كان العهد نفسه كأنه هو المسئول عن ذلك فيكون رقيبًا على الفاعل به، فقال . تعالى . مُرهبًا من المخالفة ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾. (١)

وإذا كان العهد نفسه هو المسئول عنه فإن الأمر الغرض منه الترهيب من مخالفة هذا الوفاء بالعهد، وفي ذلك إثارة وتهييج المخاطب نحو الفعل المأمور به، والإيقاع بمن خالف، وكأن تكرار العهد مع التخييل عن طريق الاستعارة بالكناية ثم التذييل بـ "مسئولًا" فيه ما يثير غضب الله من مخالفي العهود وناكثيه ، فيكون وضع لفظ "مسئولًا" دالًّا على ذلك ليكون عقابهم ألذع وأوجع.

إذَنْ: وقع السؤال على العهد مجازًا على أساس أن فى العهد مجازًا شبه فيه المعنويّ بالحسيّ تصويرًا للمعنى وتشخيصًا، ليكون أوضح وأمثل وأبْين، وليحث على الإيفاء والاستيثاق بالعهد، وعدم فكّه ونقضه؛ لأن فك العهد ونقضه سلوك مشين يؤدي إلى هدم الثقة وتفكيك الصلة بين المسلمين، "واستعمال مثل هذه التراكيب في القرآن مظهر من مظاهر إبراز القرآن للمعاني المعقولة في صوره المحسوسة؛ اعتناءً بالمعنى وإظهارًا له في أجْلى صور الوضوح".(٢)

❁❁❁❁❁

(١) نظم الدرر (٤١١/١١) .
(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : (٤٦٢/٢) .

المبحث الثاني

إقامة الجدار نوع من أنواع حفظ الثروة المنتظرة لليتيم رحمةً بعباده الصالحين

قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (١).

الدلالات اللغوية:

﴿الْجِدَارُ﴾: وهو الحائط، وجمعه: جُدر وجُدران، والجدار أصل الحائط، وفي الحديث "اسق يا زبيْر ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر". (٢)

﴿غُلَامَيْنِ﴾: مثنى غُلام، والغلام كلمة دالة على حداثة وهيْج الشهوة، وهو الذى طرَّ شاربه، أي طلع وظهر، والجمع: غِلْمة وغِلْمان . (٣)

﴿الْمَدِينَةِ﴾: مَدَن بالمكان: أقام به، ومنه المدينة على وزن فعيلة، وجمعها: مدائن ومُدُن، وكل أرض يُبنى بها حصن فهي مدينة، ويُقال للرجل العالم: هو ابن مدينتها أي العالم بأمر المكان الذي يقيم به . (٤)

---

(١) سورة الكهف: آية (٨٢) .

(٢) مقاييس اللغة (جدر)، والحديث رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب سَكْر الأنهار، برقم (٢٣٥٩)، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة (١١١/٣)، ط أولى . ١٤٢٢هـ.

(٣) مقاييس اللغة (غلم) ٦٢٠، ٦٢١.

(٤) لسان العرب (مدَن).

﴿ كَنْزٌ ﴾: الكَنز (بفتح الكاف) كلمة دالة على تجمع في شيء، يُقال: ناقة كناز اللحم أي : مجتمعة ، وقيل: الكنز اسم للمال إذا أحرز في وعاء، وقيل: الكنز المال المدفون، وجمعه: كنوز، والكنز في الأصل: المال المدفون تحت الأرض، فإذا أُخرج لم يبق كنزًا . (١)

﴿صَالِحًا﴾: مِنْ صَلَح: وهي كلمة دالة على خلاف الفساد، يُقال: صلح الشيء يصلح صلوحًا(٢)، والجمع: صُلَحاء وصُلُوح وصُلَّح، ورجل صالح في نَفسْه من قوم صلحاء، ومصلح في أعماله وأموره، والإصلاح نقيض الافساد، ورجل صالح: قائم بأعمال الصلح والإصلاح والمصلحة والاستصلاح، فهي كلمة جامعة لكل أبواب الخير، ويُقال: صلح الشيء إذا جُلب فيه الخير ودفع عنه الشرّ. (٣)

﴿رَبُّكَ﴾: الرب: المالك والخالق والصاحب، وهى كلمة دالة على إصلاح الشيء والقيام عليه، والربّ: المصلح للشيء، والله . جل ثناؤه . الربّ؛ لأنه مصلح أحوال خلقه. (٤)

﴿رَحْمَةً﴾: الرحمة: الرقّة والعطف والرأفة، يقال: رحمهُ يرحمه: إذا رقّ له وتعطّف عليه.(٥)

﴿تَأْوِيلُ﴾: الأَوَل: الرجوع، آل الشيء يئولُ أَوْلًا ومآلًا: رجع، وأوَل إليه الشيء رجعه، والتأويل: التفسير، قال . تعالى . : (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) أي لم يكن معهم على تفسيره، وقال بعض العرب: أول

(١) السابق: (كنز) .
(٢) مقاييس اللغة "صلح" .
(٣) لسان العرب (صلح) بتصرف .
(٤) مقاييس اللغة: (رَبَّ) ٦٠١ . ٦٠٢ .
(٥) السابق: (رحم) ٧٨٧.

الله عليك أمرك، أي جَمَعه، ومن ثم كان التأويل: جَمْع معاني ألفاظ أشكلت بلفظٍ واضح لا إشكال فيه. (١)، ويقال: أول الحكم إلى أهله: أرجعه وردّه . (٢)

﴿تَسۡطِع﴾: من سطع الشيء، إذا طال وارتفع، ويُقال: سطع الغبارُ، وسطعت الرائحة: إذا امتدت وارتفعت. (٣)

﴿صَبۡرٗا﴾: الصبر: الحبْس، يُقال: صَبَرْتُ نَفْسي على ذلك الأمر، أي حَبَسْتُها، قال عنترة:

فصبرْتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ... ترسو إذا نفْسُ الجبان تطلَّعُ. (٤)

والمعنى: حَبستُ نفْسًا عارفة لذلك، يريد نفْسه، والعارفة الصابرة، أي تصبر للشدائد ولا تنكرها. (٥)

المعنى العام :

جاءت هذه الآية الكريمة بيانًا وتفصيلًا لقوله . تعالى .:﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ...﴾(٦)، فبيَّن الخضر أن الحائط الذي أقامه وأصلحه كان لغلامين صغيرين يتيمين في القرية، وهى (أنطاكية) على أرجح أقوال المفسرين(٧)، وكان تحته كنز مدفون؛ وذلك لأن أباهما رجل صالح، والنبتُ الصالح لا

(١) لسان العرب (أوَل).
(٢) مقاييس اللغة: ٢٥٣/١.
(٣) السابق: (سطع) صـ ١١٤.
(٤) السابق (صبر) ٣٢٩/٢٣، والبيت لعنترة في ديوانه صـ ٨٥، تحقيق / محمد سعيد مولوي . طبعة المكتب الإسلامي . القاهرة . ١٩٧٠م .
(٥) شرح ديوان عنترة: للخطيب البتريزي، تقديم/ مجيد طراد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت . الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
(٦) سورة الكهف: من آية ٧٧.
(٧) ومن ذلك: تفسير ابن كثير، تحقيق/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩هـ، (٥٠٥/٦) .

يخرج إلا نبتًا طيبًا، قال . تعالى .: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[1]، ومن أجل ذلك أراد الله بقاء ذلك الكنز؛ حفظًا لمالهما وجزاء صلاح أبيهما، ثم يستخرج الغلامان كنزهما بعد بلوغهما وتمام نموّهما؛ رحمةً لهما جزاء تربيتهما الكريمة والجو الأسري المفعم بالتقوى والإيمان.

وكانت تلك الأحداث العجيبة والمشاهد الغريبة التي فعلها الخضر إلهامًا من الله (ﷻ) له، وهي في الوقت نفسه تعليم لسيدنا موسى . عليه السلام ـ فقال الخضر: "وما فعلته عن أمري" أي هو علم من الله أعطانيه وليس اجتهادًا مني أو ذكاءً؛ رحمةً من الله وشفقة على الغلاميْن، وذلك تمام وبيان الأمر الذي أخبرتك به آنفًا ولم تطق عنه صبرًا وسكوتًا حتى فهمت وعلمت الحكمة منه.

علاقة الآية بما قبلها من مشاهد وأحداث:

هذه الآية الكريمة جزء لا يتجزأ من أحداث القصة ومشاهدها التي قام فيها العبد الصالح (الخضر . عليه السلام) بدوْر المعلم الرباني، ثم دوْر سيدنا موسى . عليه السلام بصفته طالب علم ، يريد أن يتقرب إلى الله . عز وجل . بهذا العلم دون محاباة أو أذًى لأحد .

ويُلحظ أن العلاقة بين مشاهد القصة وثيقة ومتلاحمة، فيأخذ كل مشهدٍ بعنق صاحبه في عبارات متتالية، وفِقَر متناسقة، وجُمل متماسكة، مما يدل على التناسب بين كل آية وأختها، وبين كل كلمة وجارتها، مما يجعل القصة برمّتها . بدءًا وختامًا . ذات سمت وطابع واحد، وصولًا إلى المقصد الأسمى من الآيات، حيث "إن فقه العلاقة بين كل آية وأختها يفضى إلى الفهم الصحيح لمقاصد السورة وموضوعاتها"[2]، وبالتالي ستتولد لنا مقاصد الآيات

(١) سورة الأعراف: من آية ٥٨.

(٢) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، دراسة بلاغية: د/ إبراهيم الهدهد، رسالة دكتوراة مطبوعة، سنة ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م، صـ٨، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى . القاهرة.

المتجاورات التي يربطها خيطٌ واحد ، ونسيج واحد في نسق عجيب وترتيب دقيق ونبرة ذات نهج سوي معجز كقصة سيدنا موسى والخضر التي معنا، حيث جاءت حدثًا تلو حدث ومشهدًا تلو مشهد، وكل مشهد وحدث يفضي ويُسلم للذي يليه، وكل ذلك لابد له من غاية ومقصد، يقول شيخنا د/ محمود توفيق: "وأهل العلم بالبيان على أن يكون الابتداءُ دلائل البيان مناسبًا لقصد المتكلم من مفتتح كلامه نهج قديم وسَنَن تليد دعا إليه وأخذ به الأقدمون، وهو في باب التدبر القرآني أسمق وأوْسق".(١)

إذن: مراعاة السياق ودلالاته اللفظية والمعنوية بين كل آية وأختها، وبين كل جملة وجارتها من النبع الذى يروى الكلام، والرحم الذى من خلاله تتكشف أوجه الاعتلاقات والوشائج التي تربط بين الآيات؛ لأن "مِن سنن العربية بناء الكلام في أدب العربية أن ينعطف آخر الكلام على أوله، ويكون في آخره ما يتآخى مع أوله ويتناغى مع مفتتحه"(٢)؛ وذلك ليتبين للقارئ الدلائل والقرائن على مضمون الآيات جملة واحدة، والاستبصار إلى معالم مقصودها الأعظم، ويرى البحث أن المقصد من آيات القصة بصورة كلية الإشارة إلى أمور ثلاثة :

- **الأمر الأول:** إثبات صفة العلم لله . ﷻ وسعة رحمته وكمال قدرته.
- **الأمر الثاني:** الأدب في الحديث، والجدال في العلم والتعلم بالتي هي أحسن.
- **الأمر الثالث:** التأثر بالغير في عملية التعليم والتعلّم .

كما يُلحظ أن هذا الربط والجمع بين الآيات مظهر جمالي من مظاهر البلاغة العربية، حيث التآلف والتعاضد والانسجام والاتساق بين كل مشهد

(١) العزف على أنوار الذكر، معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، تأليف د/ محمود توفيق محمد سعد، صـ ١٠١، ط (الأولى)، سنة ١٤٢٤هـ.
(٢) السابق : صـ ١١٠ .

وآخر، ثم تفسير وتوضيح هذه المشاهد كلها؛ للإحاطة بالصورة الكلية كاملة دون تجزئة للوصول إلى تحقيق غايتها والمقصود الأعظم منها.

وهذا معناه أن سَير الأحداث في القصة كانت عِلمًا منحه الله . ﷻ . الخضر، فكان هذا العلم من المعجزات الخارقة التي سارت وفق اتجاه مخالف لما اعتاده الناس، " فالخوارق من المعجزات التي يعجز الإنسان عن تصورها في عالم الواقع، إلا أن يكون له دين يصله بأسباب السماء، فيضيف هذه الأحداث إلى قدرة الإله القادر رب العالمين". (١)

ومن علاقات الآية بما قبلها: عدم الاطلاع على الغيب، وأن كل غيب استأثره الله في علمه، وما كان الخضر ذلك العبد الصالح إلا واسطة العقد بين فعل كل حدث وبيانه، وتلك الأمور كانت من إلهام الله ـ تعالى ـ للخضر لحكمة؛ لأن ليس كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور، "ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والعلم".(٢)

ونفهم من ذلك أن بيان طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة وأن أنباء وأخبار وقصص القرآن لا سبيل إليها بالتلقى والدراسة، ومعنى ذلك أن الله ـ تعالى ـ جعل الخضر سببًا في تلقى سيدنا موسى العلم، فكان هذا العلم لا سبيل للعقل والاهتداء إليه إلا بالتلقى والدراسة والمشاهدة والسؤال والجدال والإلحاح في المعرفة والتفسير؛ لأن كل ما في القصة إنما كان من الحقائق (الدينية والغيبيّة) التي لا سبيل للعقل إليها ، حتى الخضر نفسه كان يفعل ذلك فقط لأنه إلهام من الله، وليس إيحاءً ذاتيًّا من

(١) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور، تأليف عبدالكريم الخطيب، صـ٥٨، مؤسسة دار الأصالة، ط (الأولى) ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم: د/ محمد عبدالله دراز، صـ ٦٥، دار القلم، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

نفْسه؛ لأنه لا يستطيع بشر أن يفوق فى مثل ذلك العلم وتلك الأخبار الغيبية مهما كان علمه، ومهما بلغت منزلته وعلا شأنه، فقال الله . جلَّ وتعالى . على لسان الخضر "وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي" فلخّص ذلك كل أحداث القصة، فضلًا عن تفسير كل مظنون لدى سيدنا موسى؛ وصولًا إلى الحق والحقيقة؛ "حتى لا يُظن أن علم الخضر وصل إلى مرحلة النبوءات القرآنية، والمقاييس الظنية التي لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق".(١)

ومن ثم نستطيع القول بأن ثمة وشائج وعلاقات تربط بين مطلع هذه القصة وبين خاتمتها، " حيث إن المقدمة أفادت المتلقى علم بعض الأحداث المهمة في القصة، بل أوحت إليه بنهايتها، ولكن تطلعه إلى معرفة التفاصيل لم يفتر، وتشوقه إلى إدراك كيفية النهاية قد زاد، وتهيأت نفسه تمامًا لاستقبال الأحداث المفصلة التي ستطرق سمعه، وتخترق حواجز الحس لتتلبّد فى شعوره ومكامنه". (٢)

وبذلك يتضح لنا أن العلاقة بين مشاهد القصة الواحدة وثيقة، فكل مشهد يُعد بمثابة التمهيد للذي يليه، والمشهد الثاني نتيجة للمشهد السابق، "وبذلك البناء الجمالي المحكم ارتبطت المشاهد ببعضها داخل القصة الواحدة، ومن ثم كانت مظهرًا جماليًّا من مظاهر الارتباط بين قصص السورة الأربع".(٣)

---

(١) النبأ العظيم: صـ (٦٨، ٢٨٦) بتصرف .

(٢) أسس بناء القصة من القرآن الكريم، دراسة أدبية ونقدية، د/ محمد عبداللاه عبده دبور، صـ (٨٣)، رسالة العالمية "الدكتوراة" في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، فرع كلية اللغة العربية بالمنوفية ، سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

(٣) جماليات الترابط في قصص سورة الكهف، د/ علي بن محمد الحمود، صـ٢٩، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

التحليل البلاغي:

قوله . تعالى .: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾:

جاءت الواو هنا عاطفة ما بعدها على ما قبلها من تفصيل وبيان لأحداث القصة من أول قوله: (وأما الغلام ...)، وهذا دال على أن المشاركة في القصة وزيادة حروف العطف فيها مما يزيد القارئ تأملًا وإعمال ذهن لأسباب المفارقة في القصة، والشعور بالدهشة والتركيز على الحدث نفسه دون أن يهتم بمعرفة الأحداث والفواصل الزمنية، يقول د/ أبو موسى :"وتشير مثل هذه الواوات إلى ضبط وتسلسل المواقف والمعاني والأحداث، وتجعلها متداخلة الأطراف حتى يكون ثانيها آخذًا بذنَب أولها".(١)

و"أمّا" للتفصيل والشرط، و"الجدار" مبتدأ حذف خبره، والتقدير: الجدار الذي أقمتُه، وحذف لدلالة ما قبله عليه، وهو قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾(٢)، وقوله "فكان" الفاء واقعة في جواب "أما" .

وفي كلمة "الجدار" مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث إن الجدار يطلق على البيت أو البناء بصورة كلية(٣)، وسر تخصيص الجدار لأهميته والعناية به، أي هو محل عناية عن بقية البيت.

وفي لفظ "الجدار" إشارة ورمز إلى صلاح الأب في الآية؛ لأن الجدار هو الأساس الذي يُبنى عليه بقية البناء، فكذا الآباء هم الأصل الذي يتولد وينبثق منه الفرع "الأبناء" وكأن التعبير بالجدار أساسٌ في معرفة الصلة بين الشيء ولازمه، فالجدار يلزمه الكنز، ووجود الكنز وخبؤه يلزم عدم التعرض له، وهذا يلزم تقوى وصلاح الأب؛ لأنه لولا هذا الصلاح ما كان الكنز وما

(١) دلالات التراكيب: صـ(٣٤٤) .
(٢) سورة الكهف: من آية (٧٧) .
(٣) روح المعاني : (٣٣٥/٨).

كان الغلامان، ومن ثم فإنه يجوز في ذلك الإطلاق اللغويّ أن يكون مجازًا مرسلًا علاقته اللزوم، من باب إطلاق لفظ "الجدار" على لازمه.

و(أل) في الجدار للعهد الذكري؛ لأنها تشير إلى شيء مذكور تقدم، وهو قوله: (فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه)، حيث أتى به منكرًا أولًا، ثم أتى به معرفًا ثانيًا فدل على أنه الأول.

والجملة : "وأما الجدار فكان لغلامين..." فيها وصل سره البلاغي: الاستئناف البياني، كأن يُقال: وما تفسير ما سبق؟

وجاءت "الفاء" في "فكان" دالة على التفصيل والترتيب الزمني الدال على توخى السرعة فى احتياج الإنسان إلى معرفة ما يأتي، وهو ما يُعرف بلاغيًا بـ "التشويق إلى سماع الخبر" دون انتظار أو تأخير، فما أحوج السامع إلى سرعة التلقي في مثل هذا السياق.

وفي الجملة أيضًا شبه كمال اتصال، وكأن الأولى تتولد منها الثانية، وأنها أصل ينبثق منه فرع، على هيئة سؤال وجواب، والتقدير: لمن كان الجدار؟ وتلحظ أن هذا السؤال لا يدور حول العلة في الجملة السابقة، وإنما يتصل بوجه من وجوه دلالاتها، ويدخل فيه أن يثير الكلام السابق شوق النفس إلى معرفة أكثر حول شيء من هذه الأشياء كهذه الجملة التي معنا، وقد حذف منها الخبر، والتقدير: وأما الجدار الذي أقمتُه فكان لغلامين يتيمين في المدنية.[1]

ومن الملاحظ في الآية أن ذكر "الجدار" جاء مرتبًا بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق (اللف والنشر المرتب)، وهو من المحسنات البديعية المعنوية التي تعمل على التناسب بين عناصر الكلام، وتلاحم أجزائه وتماسك لبناته، فالمشهد الأول من القصة: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾[2]، ثم

(١) دلالات التراكيب : صـ٣١٣ بتصرف.

(٢) سورة الكهف : من الآية (٧١).

يستمر المشهد: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾[1]، ثم يقوم الخضر بالشرح والتفسير حادثة بعد حادثة بترتيب حكيم ووعي دقيق، ويأخذ السرّ الخفي في التجلى عن طريق:

(١) ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾.[2]

(٢) ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. [3]

(٣) ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾. [4]

وهكذا تمضى القصة في ترتيب دقيق بين أحداثها وأسرارها وفي ترتيب بيَّن وكشف عن هذه الأسرار والأحداث دون تداخل حدث على حدث .

فجاء اللف والنشر هنا دالًّا على "إثارة الفكر، وتنشيط العقل، وتشويق النفس نتيجة ذكر المتعدد غير تام الفائدة، فتتشوق النفس لتمامها، وينشط العقل لتصورها ....، وفي اللف والنشر لون من الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، حيث يذكر المتعدد مبهمًا ثم توضح صفات أفراده، وفي هذا تفخيم له وتعظيم لشأنه.

واللف والنشر يربط بين أجزاء الكلام، ويزيد من تلاحم عناصره، نظرًا لأنه مكون من طرفين كل منهما محتاج إلى الآخر، لتكتمل الفائدة ويتضح المراد، وهذا من أقوى الصلات بين أجزاء الكلام"[5].

وهكذا يتضح لنا أن الغاية من "اللف والنشر" في قصة سيدنا موسى والخضر إنما هي للتنبيه وإثارة الاهتمام لدى القارئ ليرى حلّ الألغاز والأمور العجيبة التي قام بها الخضر، ثم الغرض الثاني من وراء ذلك ويتمثل في مقام التعليم

(١) سورة الكهف : من الآية (٧٧).
(٢) سورة الكهف : من الآية (٧٩).
(٣) سورة الكهف : الآية (٨٠)
(٤) سورة الكهف : من الآية (٨٢).
(٥) دراسات منهجية في علم البديع: د/ الشحات أبوستيت صـ٢٢٩، ٢٣٠، ط (أولى)، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

الذي من أجله التحق موسى بالخضر " فالحوادث الثلاث التي لم يصبر عليها موسى . عليه السلام- كانت بمثابة تعليم وإفصاح وبيان من الخضر لها بالترتيب، فكان التوضيح والتفسير لها هدفًا بلاغيًّا واضحًا جليًّا في بيان الأمور المستعظمة التي قام بها الخضر واستعظمها موسى . عليه السلام- "(١)

ثم نرى للف والنشر أثرًا في وجود مظهرين مرتبين من مظاهر الحوار القصصي في الآية، وهما قوله . تعالى - : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٢)، وهذا هو وضع الحد النهائي للصحبة، ثم قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٣)،(فكان هذا بمثابة الستار على باطن الأفعال المنكرة) (٤).

واللام في قوله : (لغلامين) بمعنى التمليك، أو الملكية الحقيقية، كما في قوله، تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٥)، وقوله : ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾(٦).

وجاءت كلمة "يتيمين" وصفًا يؤكد المعنى في "غلامين" ؛ ليكون أشد وآكد في العطف نحوهما والإشفاق عليهما. وقيل: "في لفظ (يتيمين) مجاز مرسل علاقته: اعتبار ما كان عليه الغلامان من اليتم قبل البلوغ، ولكن قُيد كونهما بهذا الوصف "يتيمين" لاحتمال بقاء اسم اليتم عليهما بعد البلوغ، أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما".(٧)

---

(١) ألوان البديع في سورة الكهف : د/ سلمان سالم الحسوني، بحث منشور سنة ٢٠١٦م، صـ٥٣.

(٢) سورة الكهف: من الآية (٧٨).

(٣) سورة الكهف: من الآية (٨٢).

(٤) بلاغة الحوار القرآني ووظيفته الحجاجيّة في سورة الكهف: تأليف/ نور الدين دحماني، صـ١٠، بتصرف . المكتبة اللغوية . دون تاريخ.

(٥) سورة سبأ: من الآية (١).

(٦) سورة الشورى : من الآية (١١)، ينظر: صناعة الكتابة (علم البيان . المعاني . البديع)، د/ رفيق خليل عطوي، دار العلم للملايين، بيروت . لبنان . ط (أولى)، ١٩٨٩م، صـ١١١.

(٧) تفسير ابن عطية: تحقيق/ عبدالسلام عبدالشافي محمد، ٥٣٧/٣، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، ط (أولى)، ١٤٢٢هـ .

وإذا كان في الكلمة مجاز مرسل فالغرض منه مساعدة اليتيمين وتقديم يد العون لهما، وهذا على سبيل الحث والحض على الإقبال عليهما لا الإعراض عنهما، وذكر الألوسي: " يُحتمل أنهما كانا بالغيْن، والتعبير عنهما بما ذكر باعتبار ما كان على معنى الشفقة عليهما"(١) ، ويرى البحث أن كلام الشيخين ابن عطية والألوسي محل نظر؛ لأن السياق في الآية لا يمنع أن يكون اليُتم مستعملًا على حقيقته لأسباب منها، أولًا: إقامة الخضر لهذا الجدار، وهذا يستوجب الدفاع عن اليتيمين في هذه اللحظة التي تهدم فيها الجدار لئلا يتكشف للناس أمرهما فينتزع حقهما عنوة، ثانيًا: مداراة الكنز تحت الجدار حتى يبلغ الغلامان، مما يدل على أنهما كانا غير تامين البلوغ، بل هما على مشارف الوصول إليه بدليل كلمة "غلامين"، ثم إنك ترى قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فيه احتمال البلوغ . في الظاهر . لكنه بلوغ ناقص لم يصل إلى حد سنّ الرشد الذي به يدفع إلى الغلامين كنزهما، فصار حكمهما كحكم اليتيم الذي لم يبلغ أصلًا، والله أعلم .

ثم قوله: (في المدينة) : حرف الجر "في" هنا معناه للظرفية الدالة على تمكن الغلامين من المكان تمكن الظرف من المظروف، مما يشير إلى أنهما من أهل المدينة، وأنهما من السكان الأصليين فيها، وهذا المعنى لحرف الجر كما في قوله . جل وعلا .: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(٢)، وكقول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طِيب عَرف العُود(٣)

---

(١) روح المعاني: (٨/٣٣٥).

(٢) سورة الفتح : من آية (٢٩) .

(٣) صناعة الكتابة (علم البيان . المعانى . البديع) صـ ١١١، والبيت في ديون أبى تمام: صـ٨٥، ط دار الكتب العلمية . وقف على طبعه/ محي الدين الخياط، ١٩٧٣م، والبيت من بحر الكامل، من قصيدة يمدح فيها أبا عبدالله أحمد بن أبي دؤاد، ويعتذر إليه ويستشفع بخالد بن يزيد، ومطلعها:

أرأيت أي سوالف وخدود ... عنت لنا بين اللوى وبرود .=

وجاءت (أل) في لفظ "المدينة" للجنس؛ لأن المراد جنس مَنْ في المدينة، وهم أهلها وسكانها.

ثم تنكير كلمة (كنز) الدالة على وجود الخير والمعرفة بالعلوم منذ زمن بعيد، ثم ترى قوله: (رحمةً من ربك) الدال على عظيم رحمة الله، فكل هذه دلالات مكنت من مدحهم والثناء عليهم، "وأل في المدينة للجنس، والمراد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح"[1]، "وفي المدينة مدح بخلاف أهل القرية، وجاء الوصف بالصلاح قرينة على أنه لم يكن من الكنز المذموم".[2]

ومن اللافت للنظر والتأمل في هذه الآية أن الله ﷻ آثر في هذا السياق والمقام استعمال لفظة (المدينة) دون القرية كما سماها القرية في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾[3]، وهذا من باب التنوع الدلالي والاختلاف في الألفاظ، ولا إشكال في ذلك؛ إذ القرية في اللغة لا خلاف بينها وبين المدينة، أما استعمال كلمة "المدينة" هنا فجاء تبعًا للسياق، مما يدل على أن الإعجاز القرآني بنظمه البديع يرى ما لا يراه الناس (والله أعلم بأسرار كتابه)، حيث "يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه ...، يستخدم كُلًّا حيث يؤدّي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها، فكل

=والعود: نوع من البخور طيب الرائحة، لا تنتشر رائحته ولا تُعرف إلا حين يُحرق ويمتزج بالنار مزجًا. ظ/ خواطر الإمام الشعراوي، للإمام الشعراوي، (١١٧٦/١٨ بتصرف يسير)، مطابع أخبار اليوم، نشر عام ١٩٩٧م .

(١) روح المعاني (٣٣٥/٨) .

(٢) السابق نفْسه .

(٣) سورة الكهف: آية (٧٧).

لقطة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفًا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا".(١)

ومما يؤكد هذا القول السديد والرأي الرشيد ويشد من عضده ما ذكرَتْه د/ عائشة عبدالرحمن: "والبيان القرآني يجب أن يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه حتى يهدي إلى سرّ الكلمة لا تقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها ... فما من لفظٍ في القرآن الكريم يمكن أن يقوم غيره مقامه، وذلك ما أدركه العرب الخُلّص الفصحاء الذين نزل فيهم القرآن". (٢)

وفي الحقيقة هذا كلام جيد ونفيس؛ لأن قضية (الترادف) قضية شغلت بال كثير من البلاغيين في هذا العصر، يقصدون الترادف حين يُقال بتعدد الألفاظ للمعنى الواحد دون أن يرجع هذا الترادف إلى تعدد اللغات.

ونخلص من هذا أن لفظ "المدينة" و "القرية" مختلفان لفظًا ودلالة حسب السياق العام في القصة الواحدة، فلكل كلمة موقعها وبيانها المختلف عن الآخر، والظاهر لنا أن آية القرية دلت على الذم والنقيصة في حق أهل القرية؛ لذا جاءت منكّرة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وفي ذلك إشعار ببخل أهل القرية وإلزامهم الإمساك حالة الاجتماع؛ لأن كلمة "قرية" دالة على جمع واجتماع، وسميت قرية، لاجتماع الناس فيها، وجمعها قُرًى، وسميت بذلك، لاجتماع الضيف عليها أو لما جمع فيها من طعام. (٣)

ثم كلمة "أهلها" في قوله: "استطعما أهلها"، وهذا يعني أن سيدنا موسى والخضر طافا فى الناس فردًا فردًا وبيتًا بيتًا فلم يستجب أحد لهما، لذا وضع الظاهر موضع المضمر؛ للتعميم أي جميع أهل القرية دون استثناء مبالغة فى

(١) من بلاغة القرآن: تأليف/ أحمد أحمد البدوي، صـ ٥١، نهضة مصر . القاهرة . عام ٢٠٠٥م.

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: تأليف د. عائشة علي عبد الرحمن، (المعروفة ببنت الشاطئ) . دار المعارف . الطبعة الثالثة . ١٩٨٤م ،صـ٢٠٩ . ٢١٠.

(٣) مقاييس اللغة : مادة (قَرَيَ) ٧٨/٥.

ذمهم، ولو كان التركيب: "استطعماهم" بالضمير لكان عائدًا على البعض دون البعض، وهذا غير مراد؛ "لأن وضع الظاهر حينئذ يكون أليق بالذم في ترك الضيافة".(١)

ومن ثم فإن التعبير عن القرية جاء دالًّا على الانعزالية والأنانية تجاه الغرباء مع توسّم الخير فيهم، كما توسم سيدنا موسى والخضر فى المكان وأهله في إقراء الضيف وإطعامه، ثم يستخدم القرآن مرة أخرى لفظ "المدينة" لنفس المكان، وفى ذلك دلالة على طبائع وخصائص المجتمع فى المكانيْن، وليس توصيفًا للمكانين أو تمييزًا لهما من الناحية الحضرية أو البدوية، وإنما جاء اللفظان يدلان على اختلاف العادات والطبائع بين البشر حتى ولو كانوا فى مكانٍ واحدٍ.

والأصل في لفظ القرية أن تكون بمعنى توسّم الخير أو النزعة نحو الخير، ولذلك وصفت مكة في القرآن بأم القرى. (٢)

وهذا مخالف تمامًا لما عليه الناس من معنى القرية والمدنية بمفهومهما العام من حيث الحضارة والبداوة، أو ما يُعرف بالريف؛ لأن الأمر أسمى وأعظم من ذلك المفهوم الذي عليه البشر، فللقرآن الكريم مراميه ومقاصده، والبلاغة القرآنية (هي الوجوه التي توجد في القرآن الكريم ولا توجد في كلام الناس). (٣)

ومن هنا فإن الاختلاف بين اللفظين يدور حول معنى (السكان والمسكن)، فالسكان جاء دالًّا عليه لفظ "القرية" والمراد ذمّ أهلها الذين يقطنون بها، أما المسكن فهو المدينة التي يقيم فيها الإنسان، "وكانت المدينة بمعنى

(١) نظم الدرر: ١٢/١٢٢.

(٢) بحث نشر بعنوان: الفرق بين القرية والمدينة، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن (اللغوي والبياني)، بقلم: محمد إسماعيل عتوك (ص٢ بتصرف) عام٢٠١٠م .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية: صـ٣١، د/ محمد أبو موسى، ط(٢)، دار التضامن، ١٩٨٨م.

الإقامة، فكان التعبير بها أليق؛ للإشارة إلى أن الناس يقيمون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز". (١)

كما يُلحظ أن دلالة "القرية" في القرآن الكريم (في الأغلب) اقترنت بمواقف سلبية، وعلى العكس كانت دلالة "المدينة"، قال . تعالى .: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢). وفي الآية التي معنا ارتبطت القرية بوصف عدم إكرام أهل القرية الضيف، وهو أمر ترفضه العادة ويرفضه العرف والدين؛ لذا ارتبط الوصف مع لفظ القرية، وبالرغم من أن الغلامين من أهل تلك القرية إلا أن وصفهم هذا اقترن بالمدينة بعد أن وصفوا بصلاح أبيهما "وكان أبوهما صالحًا"، "فخصوصية اللفظ في السورة، وعموم الدلالة في القرآن كان وراء هذا التنوع الدلالي في الألفاظ، وهو عنصر من عناصر الحوار في القصة، وهو ما يقوم على إيحاء اللفظ ودلالته؛ وذلك لتعم الفائدة من الحوار، فبغير الحوار لا نجد الفائدة ولا الذوق الرفيع والتلوين البديع في الحادثة والجمال والبيان". (٣)

وذكر أبو السعود في تفسيره: "أن المدينة هي القرية المذكورة، ولعلّ التعبير عنها بالمدينة؛ لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح". (٤)

وعن ملاءمة اللفظة للسياق يقول الإمام الخطابي: "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضوعَه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أُبدل مكانه

(١) نظم الدرر (١٢/ ١٢٢) .
(٢) سورة يس : الآية (٢٠).
(٣) القصة القرآنية، الخصائص والأهداف، صـ ٧٨ بتصرف، تأليف/ على حسن سليمان، الطبعة الأولى . القاهرة . مطبعة الحسين الإسلامية . ١٩٩٥م.
(٤) تفسير أبي السعود : (٢٨٣/٥).

غَيرَه جاء منه : إما تبُّدلُ المعنى الذي يكون منه فسادُ الكلام، وإمَّا ذهابُ الرَّوْنق الذي يكون منه سقوط البلاغة". (١)

بل إن لكل لفظة في اللغة معنًى دقيقًا خاصًّا بها؛ " إذ إن كل حرفين أوقعتهما العربُ على معنى واحدٍ فى كل منهما معنى ليس في صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غَمُضَ علينا فلم نلزم العرب جَهْلَه".(٢)

وبهذا يظهر لنا مما مضى البونُ الشاسع والدلالات المتنوعة بين لفظ "القرية والمدينة" رغم وحدة القصة، ووحدة الأشخاص، ووحدة الزمان والمكان، لكن تظهر براعة القرآن وإعجازه فيما هو أبْعدُ من ذلك وأَقْصَد.

ثم قوله: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾: جاءت كلمة "تحته" ظرف مكان منصوب متعلق بخبر كان، وتقديم الظرف على اسم كان له علة نحوية قالها الزجّاج: "فأما الظرف إذا كان خبرًا كان تقديمه على اسم كان كثيرًا" . (٣)

وأما تقديمه (أي الظرف) على المبتدأ المؤخر "كنزٌ" فله علّة بلاغية أيضًا وهي مزيد خصوصية في هذا الجدار، واعتناء بشأنه دون غيره؛ لأنه هو المعنى والمنوط به المقصد والغاية، وكأنه بذلك قدّم الأهم وهو لفظ التحتية على المهم " الكنز" من باب تقديم السبب على المسبَّب، ولذلك صدّر الله . عزَّ وجلَّ . الآية بلفظ "الجدار"؛ لأن بقية الآية قائمة عليه، مما يدل على أن النظرة الواسعة الفاحصة تكون أولًا في تحديد الجدار، ثم مكان الكنز من هذا الجدار،

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم: للإمام الخطابي، صـ ٢٩.

(٢) كتاب الأضداد: لابن الأنباري، ص(٧)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٠م .

وانظر / الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: د. محمد بن عبدالرحمن بن صالح الشايع،ص(٩٢)، مكتبة العبيكان . الرياض . ط (أولى) ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م.

(٣) إعراب القرآن المنسوب للزجاج (٢٨٤/١)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية، ١٩٦٤.

ثم استخراج الكنز نفسه، وكأن الله . سبحانه . لم يرد لهذين الغلامين الحيرة والتخبط في الوصول إلى مكان الكنز، فقال : "وكان تحته كنز" ، ولذلك تلاحظ أن أول حرف عطف ذُكر هنا بعد "فاء" التفصيل الدالة على الترتيب الزمني وتوخى السرعة في تشوق القارئ إلى معرفة ما سيأتي من أخبار وأحوال، فكانت الواو فى "وكان تحته كنز" لتفيد الأولوية في التقديم دون أي تأخير زمني، مما يدل على سرعة النظر إلى محل الكنز وسرعة استخراجه، "وهكذا تجد الواو في النظم القرآني لها إيحاء يشير إلى شيء من الترتيب والأسبقية في الذكر حسب السياق والمقام".(١)

كما جاءت كلمة (كنز) نكرة؛ للدلالة على أنه كنز مجهول لا يعرفه أحد، فلا يهتدي إليه أحد من الناس، مما يشير إلى التعظيم والتفخيم في شأن هذا الكنز، وكأنه بلغ مبلغًا مبهمًا لا يُعلم قدره ولا يُعرف كنهه.

وتظهر أهمية التنكير وتكثر معانيه، "فهو معنى شامل وعميق، صالح لأن يتولد منه معاني كثيرة، وذلك إذا أجراه في التعبير بصيرٌ بأحوال الكلمات خبير بسياسة التراكيب".(٢)

"ودلالة التنكير تعني الإبهام، وللإبهام في حد ذاته مذاق بياني تلوح منه في سياقه أسرار جمة...، ويأتي التنكير لإفادة الجنسية والوحدة، وتتفرع منه إيحاءات عديدة كالتعظيم، والتكثير، والتحقير، والتقليل مما يوحي به السياق".(٣)

ومن هنا نفهم أن كلمة كنز نكرة مجهولة، ومما جاء في ذلك قول القرطبي: "اختلف أهل التأويل في ذلك الكنز، فقال بعضهم: "كان صحفاً فيها

(١) من بلاغة حروف المعاني في النظم القرآني: صـ ٤٨٩.
(٢) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: صـ ٢١٤.
(٣) الخصائص البلاغية في سورة يوسف، إعداد/ محمود حسن مخلوف . رسالة ماجستير . جامعة الأزهر . ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م .

علم مدفونة"، وقال آخرون: "بل كان مالًا مكنوزًا"[1]، والبعض على " أنه كنز من ذهب أو فضة". [2]

وبناء على ذلك فإنه يجوز في كلمة "كنز" أن يكون مضافًا حُذف المضاف إليه منه، والتقدير: كنز علم أو كنز مالٍ أو كنز ذهب أو فضة. وعلى الجهل بكُنهه كلية يكون على حذف صفة أقيم الموصوف مقامه، والتقدير: كنز ثمين أو جسيم.

واللام في قوله: (لهما) دالة على الملكية المؤذنة بالانتفاع، أو دالة على الاختصاص، أي أن الكنز ملك لهما وليس لغيرهما حق فى انتزاعه أو الانتفاع به.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾: أضيف لفظ "أب" إلى ضمير المثنى الغائب "هما"، وهذه الإضافة تفيد تعظيم المضاف إليه وإكرامهما، وإظهار كمال العناية بهما والاهتمام بشأنهما، خصوصًا وأن الآية أوضحت الاسم الظاهر "غلامين يتيمين" فكان الوصف "يتيمين" أيضًا لإظهار كمال العناية بهما، وعلى كلٍّ فإن الاسم الظاهر عن طريق الوصف، والإضمار عن طريق الإضافة كلاهما أضفى معنى التشريف والتعظيم والتكريم بما يستوجب الإقبال عليهما لا الإعراض عنهما، فالإضافة في هذا السياق جاءت لتفيد الحث على فعل الشيء، وكأن إضافة "الأب" إلى الضمير "هما" فيه استعطاف لهما وحث على عدم مفارقتهما، كما أن الإضافة هنا أفادت الإيجاز والاختصار،

(١) تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري (٣٦٢/١٥ – ٣٦٥) تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر . ط (أولى) . القاهرة . ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

(٢) صفوة التفاسير: تأليف / محمد على الصابوني (٢٠١/١٦) . دار القرآن الكريم . بيروت . ط(٤) . ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م ، وروح المعاني: (٣٣٥/٨).

"والتعريف بالإضافة ليس للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع أخصر منه، فهو يقصد إليه رغبة في الإيجاز"(١) .

ويلحظ أن القرآن الكريم استعمل لفظ "الأب"، "والوالد" والمعنى بينهما مختلف حسب السياق والمقام.

والمقام هنا يستدعي إيثار لفظ "الأب" خصوصًا مع الصلاح كما جاء في الآية: "وكان أبوهما صالحًا"؛ لأن "الأب" هنا على إطلاقها العام المراد به الأب المباشر، والجد وجدّ الجدّ وإن سفل، وفي ذلك دلالة على تقوى وصلاح هؤلاء الآباء والأجداد جيلًا بعد جيل أصلًا وفرعًا، بعيدًا وقريبًا. ومثل ذلك نجده في القرآن مستعملًا في قول الله . تعالى .: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾(٢)، وغير ذلك من الآيات .

أما لفظ (الوالد) فلا يطلق إلا على الأب المباشر بغير واسطة، بدليل قول الله . تعالى .: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾(٣)، وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾. (٤)

ثم تأتي كلمة "صالحًا" على النصب متعلق بخبر "كان" ، وجاءت نكرة مفيدة للتعظيم والتكثير في شأن الصلاح، أي على درجة كبيرة من الصَّلاَح.

كما نجد بين الجملتين (وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا)، وصلًا وعطفًا للتوسط بين الكمالين، ثم تجد هذا الوصل مرتبطًا بما قبله أيضًا في جملة "فكان لغلامين يتيمين" فقد وصلت الجمل الثلاث ببعضها متفقة خبرًا مختلفة في المفهوم مع وجود الرابط بينهم، فمفهوم الأولى وصف الغلامين باليتم، وهذا يستلزم رعايتهما وحفظ حقوقهما وصيانة مالهما؛ لصغر سنهما

(١) خصائص التراكيب : صـ ٢١١.
(٢) سورة يوسف: من الآية (٦) .
(٣) سورة لقمان : من آية (٣٣).
(٤) سورة البلد : آية (٣).

وضعفهما حتى لا ينتزع الناسُ حقهما. ومفهوم الثانية: وجود هذا المال أو الكنز تحت الجدار، فكان هذا ثمرة من ثمرات تقديم الرعاية لليتيمين وحفظ حقهما حتى بلوغ وتمام سن الرشد، وهذا يشير إلى طيب وكرم نسلهما؛ لذا استحقا من الله ـ ﷻ ـ هذه المكانة السامقة والدرجة العالية، فكانت الجملة الثالثة: "وكان أبوهما صالحًا"، ويُلحظ أن الجامع بين هذه الجمل الثلاث هو الدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، فلولا أنهما وُصفا باليُتم لضاع حقهما بعد انهدام الجدار، ولولا صلاح أبيهما ما كان حفظ اليتيمين ورعايتهما؛ لأنه كما قبل: "صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع". (١) ؛ فجاءت كل جملة مرتبة ما بعدها على ما قبلها ومُسبَّبة عنها في تناسق بديع ونظم عجيب.

ثم قوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾: تلحظ هنا إسناد الفعل "أراد" إلى الظاهر "رب"، ولم يسند إلى الضمير كما في قوله ـ آنفًا ـ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾(٢)، وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا...﴾ (٣)؛ لأن بقاء الغلامين حتى يبلغا أشدّهما ليس للخضر فيه أي قدرة أو إرادة، بخلاف الخشية ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾(٤)، وكذلك إرادة عيب السفينة فإن كلًّا منهما وقع من الخضر، وفي ذلك إشارة إلى أن استعمال الأدب مع الله ـ عزَّ وجلّ ـ في الألفاظ أمر ضروري كما فعل الخضر وأسند العيب إلى نفسه، أما الخير فأضافه إلى الله ـ سبحانه، ومثل ذلك نجده كثيرًا في القرآن الكريم، فمثلًا أدب سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

(١) صفوة التفاسير: (١٨٤/٢) .
(٢) سورة الكهف: من آية (٧٩).
(٣) سورة الكهف: من آية (٨١).
(٤) سورة الكهف: من آية (٨٠).

يَشْفِينِ﴾[1]، فقد نسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله . عزّ وجلّ . نجد أيضًا قول الحق . تبارك وتعالى . على لسان الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[2]، ولاحظ بناء الفعل "أُريد" مع الشرّ جاء لغير المعلوم، بخلاف ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، مما يدل على وجوب التأدب الجم مع الله . ﷻ . في الحديث، فلا ننسب إليه إلا الخير؛ لأنه من غير اللائق نسبة الشر إلى الله . تعالى . وإن كان الجميع من قضاء الله وقدره وبيده وحده.

والفاء في "فأراد" تفيد التعقيب والسرعة في الحدث؛ لذا عبّر بالماضي "أراد" ليكون أقوى في وجود الفعل المنوط به الإرادة وهو: "يبلغا"، "يستخرجا"، هذا وجه. وقيل: "الفاء تفيد الترتيب والتراخى، وأن ثمة فاصلًا بين الحدثيْن، والفاء تحرك الزمن في الفعل الماضي، وتمده وتمطله حتى تمد به أول الزمن في الفعل الذي يليه". [3]

وهذا معناه أن مجيء الفاء هنا مع الفعل الماضي (أراد) يتسبب في إمكانية تحريك الفعل بعد الأحداث التي فاتت على وجه من التؤدة والاطمئنان حتى يبلغ الغلامان ويستخرجا كنزهما، ولذلك جاء الفعلان "يبلغا، يستخرجا" مضارعًا دالًّا على التجدد والاستمرار في الحدث.

ويجوز أن تكون الفاء للتعقيب مع التسبب، أي فعل الخضر ما فعل من أحداث؛ لأنَّ الله أراد ذلك لحكمة.

وجاء لفظ "رب" دالًّا على شمول العناية والرحمة، ولهذا اللفظ وَقْع عظيم في القلوب، "فالرب مشتق من التربية، وهي القيام على إصلاح شئون الغيْر، ورعاية غيره، والربّ يُطلق على عدة معانٍ منها: المصلح والمعبود

(١) سورة الشعراء : آية (٨٠) .
(٢) سورة الجنّ: آية (١٠) .
(٣) دلالات التراكيب : صـ ٣٤٤.

والسيد المطاع"[١]، فكأن لفظ "الرب" قوّى داعي الإرادة، وفيه التفات عُدل من الغيبة إلى الخطاب، أي أراد ربّهما؛ لأن هذا الانتقال هيأ خطاب سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وهو من أبطال القصة لا يجوز تجاهله، ولأنه هو (عليه السلام) المنوط به شرح وتفسير أحداث القصة ، فدلَّ وجوده على أنه عنصر أساسي من عناصر القصة، مما يدلّ على أن الربّ هو المربى والمعلّم والحافظ، والآيات كلها في القصة أفادت معنى التعهد والرعاية والتربية؛ لذا جاءت المناسبة تامة بين الأمر المطلوب واسمه الكريم (سبحانه).

وهذا معناه أن إضافة (رب) إلى ضمير سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ "تنبيه له على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته ـ سبحانه وتعالى ـ ووجوب الاحتراز عن المناقشة والمجادلة فيما وقع من أحداث وأمور". [٢]

وجاء التعبير بالمضارع في "يبلغا . يستخرجا"؛ للدلالة على تعهد ربّ العزّة . سبحانه . بالغلامين على الدوام . قبل البلوغ وبعده . جزاء صلاح الآباء.

وقيل: (جاء التعبير بالمضارع على حكاية الحال، وهذا متساوق مع أحداث القصة كأنها مشاهدة الآن؛ لأن المضارع دال على زمن الحال أو الاستقبال، فاستعماله هنا جاء استعارة تبعية شبّه فيها الماضي بالحال لشهرته، ولتكرار الحديث عنه).[٣]

والفعل المضارع "يستخرج" من الاستخراج، استفعال للمبالغة في إخراج الكنز، حتى كأنهما وهما متلبسان به يطلبان من نفسهما الزيادة في التعب والحث على التنقيب والبحث عن الكنز.

والسين والتاء فيهما دلالة على زيادة المعنى، مما يشير إلى زيادة التعب والمشقة في الوصول، مما يدل على أن هناك بُعدًا في الزمن والمسافة، ولو جاءت الكلمة عارية من السين والتاء لأصبح الأمر سهلًا قريب المنال

(١) صفوة التفاسير: (١٩/١) .
(٢) تفسير أبي السعود: (٢٣٩/٥).
(٣) خصائص التراكيب: صـ ٢٥٢ بتصرّف .

لأيّ أحدٍ من الناس، وبذلك يقرب الزمن وتقرب معه المسافة فى الحفر والبحث عن الكنز.

والسّر في تقديم "يبلغا أشدّهما" على "يستخرجا كنزهما" أن البلوغ مرحلة تحتاج إلى زمن كي يقوى البُنيان ويشتد عود الجسم مع استواء العقل؛ لذا عبّر هنا بالأشد دون الرشد؛ لأن السياق هنا يتطلب قوّة الجسم واشتداده حتى يكون قادرًا على تنفيذ مأمورية صعبة كاستخراج الكنز من باطن وأعماق جذور الجدار، ولا ريب في أن هذه مرحلة تحتاج إلى لَأْيٍ كثير وجهد جهيد لن يتم إلّا إذا صحّ الجسم وسلم العُود.

ثم قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: والرحمة إشارة إلى عناية الله وحفظه، وجاءت نكرة للمبالغة في تعظيم الرحمة كما هو مقتضى الحال، أي دالة على التعظيم والتكثير والتفخيم، فهي رحمة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها، والرحمة رقة تقتضى الإحسان والإنعام والإفضال، ومجيئها نكرة دلت أيضًا على الدوام أي أن رحمة الله واسعة دائمة لا تنفك عن عباده الصالحين، تنير أمامهم سبل الفوز والفلاح والنجاح، وتحسن علاقتهم بالله . ﷻ.

وسر التعبير بالرحمة هنا مناسب للسياق والمقام، فالسياق حديث عن اليتيم، وهذا يناسبه جانب الرحمة واللين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجد قوله . تعالى .:﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ، وهذا دال على أن الرحمة من نتائج الصلاح وثمرة من ثمراته، فالصلاح سبب للرحمة، والرحمة مسببة عنه ومرتبة عليه، "والرحمة لا تعرف لها مجالًا، ولا تجد لها مستقرًّا إلا في صدور المؤمنين، وقلوب الصالحين من عباد الرحمن، أما غير الصالحين فقد عدلوا عن الصراط السويّ، لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلوبهم، ولذا يكونون غلاظ الأكباد، متبلّدى الإحساس، يفتقدون الشعور الإنساني، قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوة؛

وذلك لأنها قلوب لم تشرق فيها شمس الصلاح والرحمة، ولم تعرف نور الإيمان، وأنّى للرحمة أن تعرف طريقًا إليها أو تجد لها مكانًا فيها؟!".(١)

و"مِنْ" في "رحمة من ربك" لبيان نوع الرحمة، وفيها معنى الشمول والعموم لبيان رحمة الله الواسعة التي لا تعادلها رحمة، و "من" فيها كقولك: الحب من ألطف المشاعر. (٢)

ووضع الظاهر موضع المضمر هنا في "رب" يشير إلى أن الرحمة محل عناية من الله، كما أن فيه إشعارًا بالتربية والفضل والامتنان والإكرام والجود والإحسان، "وقد يأتي ذلك اعتمادًا على وضوح المراد، وادّعاء أنه معروف حاضر في القلب لا يخطر بالبال، وهذا يشير إلى معانٍ قد يكون بعضها من خصوص دلالة الاسم الظاهر الذي أوثر وضعه موضع المضمر، وفي ذلك كمال العناية بتميزه؛ لأن الخبر عنه خبر غريب".(٣)

وإضافة الرب إلى كاف الخطاب في (ربك) إضافة تشريف وتعظيم لمقام سيدنا موسى . عليه السلام- عند ربه . جلَّ وعلا . " وفي ذلك دليل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان، والمقصود منه أن يصير العبد فرحًا مبتهجًا عند سماع هذا الاسم "ربك"؛ لأن لفظ (رب) مشعر بالتربية والفضل".(٤)

وبما أن سيدنا موسى - عليه السلام- عنصر من عناصر القصة فقد جاء الخطاب موجهًا إليه لإيقاظ النفس وتحريك المشاعر، وفي هذا الخطاب تكريم له؛ ليحدث هذا الضمير هزّة في نفسه فيشعر بالابتهاج والسرور، وفي ذلك

(١) من أسرار البيان في سورة لقمان: د/ عبدالفتاح عيسى البربري . صـ ٣٢ بتصرف . ط (أولى) . مطبعة الأمانة . مصر . ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
(٢) خصائص التراكيب: صـ ٢٤٤ بتصّرف .
(٣) صناعة الكتابة (علم البيان . المعاني . البديع): صـ١٠٩.
(٤) تفسير الإمام الفخر الرازيّ، المسمى (مفاتيح الغيْب)، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (أولى)، ١٤٢١هـ / ٢٠٠م، (٩٤/٢٩).

إشعار بعظم مشاركته الخضر بالمسئولية في تطبيق أوامر الله ونواهيه، وهذا يشير إلى أن الخطاب لسيدنا موسى في "رحمة من ربك" أَوْلى من الغلامين؛ لأن المعنى: ما فعلتُ من الأمور التي شاهدتَها (يا موسى) رحمة من ربك، ولفظ "رحمةً" مصدر في موضع الحال، أي مرحومين، وهما الغلامان" ، فكان الخطاب لسيدنا موسى أيضًا بُعدًا عن التكرار، فلو قال: "من ربهما" يعد "رحمة" لصار الغلامان في موضع الرحمة والخطاب، لكن الرحمة جاءت في جانب الغلاميْن أولى، والخطاب في جانب سيدنا موسى . عليه السلام- أولى في هذا السياق، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ﴾:

الواو واو العطف، حيث عطفت (ما) النافية على سابقها (رحمة من ربك)، وهذا تبرير لموقف الخضر، الذي يريد أن يؤكده ويقرره في نفوسنا أكثر من مرة ليتبين للقارئ الكريم أنه لا دخل له في كل ما حصل من مواقف ومشاهد وأحداث، فجاءت هذه الجملة "وما فعلته عن أمرى" مؤكدة لما قبلها "رحمة من ربك" ومبينة لها، وذلك على رواية أن "الرحمة" هنا بمعنى الوحي والإلهام، وأنها مفعول لأجله، فيكون الكلام حينئذ على تقدير المحذوف: (فعلت ما فعلت رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى)، "فهو حينئذ مفعول له بتقدير إرادة أو رحمة ربك، أو منصوب بنزع الخافض، والرحمة بمعنى الوحي، أي برحمة ربك ووحيه، فيكون قوله: "وما فعلته عن أمري" أي عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك".[1]

وجاء في فتح البيان في مقاصد القرآن: "أن الجملة تأكيد لما قبلها، فقد علم بقوله: (فأراد ربك) أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه؛ لأنَّ تنقيص

(١) روح المعاني: (٣٣٧/٨).

أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيّر أحوالهم لا يكون إلا بالنص، وليس في هذا دلالة على نبوّة الخضر، بل هو إلهام من الله . ﷻ . إليه".[١]

والذي يؤكد حقيقة هذا الكلام أمران: الأول: وجود "ما" التي بمعنى النفي، ويراد بها العموم المطلق أي نفي كل جنس من الأجناس[٢]، وهذا يعني نفي كل حدث وموقف من المواقف التي فعلها الخضر أن يكون منسوبًا إليه، مما يدّل على كمال سعة وعظيم وجلال رحمة الله المطلقة.

والأمر الثاني: قوله: "عن أمرى"، و"عن" هنا بعد النفي المطلق تكون بمعنى المجاوزة[٣]، مما يدل على نفي الخضر عن نفسه مجاوزة الحد في فعل تلك الأحداث وحرية التصرف فيها؛ وذلك لأنها أمور هو قائم بفعلها ومأمور بقيد التصرف فيها دون زيادة أو نقص؛ لأنها في جميعها معجزات خارقة عن العادة والعرف.

ويجوز أن تكون هذه الجملة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ مستأنفة بالواو لبيان حال الخضر مع سيدنا موسى . عليه السلام . وهو من عطف المعنى، وقد انتقل فيها الكلام من الغائب إلى المتكلم، وفي ذلك دلالة على إشاعة الإحساس بأنه يحكي قصة يبرئ فيها نفسه من ساحة القيل والقال وكثرة السؤال من خلال هذه العبارة الموجزة بطريق حرف الواو، ولاحظ ترابط هذه الجمل ببعضها عن طريق حروف العطف من أول قوله : "وأما الجدار" حتى نهاية المطاف وصولًا إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ تجد أنها بدأت بالمبتدأ "وأما

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري التنوجي (ت ١٣٠٧هـ) ، (٩٦/٨)، تقديم/ عبدالله إبراهيم الأنصاري، نشر المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المراديّ، تحقيق/ فخر الدين قباوة، أ. محمد نديم فاضل، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(أولى)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، صـ٣١٩ بتصرف.

(٣) صناعة الكتابة (علم البيان . المعاني . البديع)، صـ ١١٠.

الجدار" وانتهت أيضًا بالمبتدأ "ذلك تأويل" حيث يُبنى الخبر الأخير على ما قبله وهو إعادة الخبر المقدر في الجملة الأولى، وهذا امتداد ومواقف للجمل تجرى في نَفس واحدٍ ووَتر واحدٍ ونسق واحدٍ دون نزاع أو تداخل في المعنى؛ "حتى يتبين نسج الكلام وتوزيع جزئياته، وكيف كان ينبث من الفروع فرع آخر، وكيف كانت تتصل الفروع الصغيرة وتلتحم بالفرع الكبير الذي يتصل بدوره بأصل الفكرة فيمدّها بما يمدّها به من معانٍ وأحوال وصور". (١)

وكلمة (ذلك) في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: ذلك الأمر تأويل ، "والتأويل هنا الحال الذي آلت إليه تلك الأمور، وهو اتضاح ما كان مشتبهًا على سيدنا موسي عليه السلام". (٢)

ولاحظ اسم الإشارة في هذه الجملة الاستئنافية، وجاء للبعيد، مراعاة لبُعد الزمن والمسافة بين الحدث والتفسير ، أو جاء لتعظيم وتفخيم المشار إليه من مواقف ومشاهد؛ لكونها من علم الله، أو للدلالة على تنبيه السامع إلى تمييزها أكمل تمييز؛ لأنها من الأخبار العجيبة ذات صنع رائق بديع، وذكر الألوسي: "وجاء باسم الإشارة للبعيد إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان، وما فيه معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتها في الفخامة". (٣)

ويقول د/ أبو موسى: "وأوثر وضع اسم الإشارة هنا للبعيد لإكمال العناية بتمييزه؛ لأن الخبر عنه خبر غريب". (٤)

ومن دلائل اسم الإشارة في القرآن الكريم أنه من وسائل الاتساق داخل النصّ، ومن وسائل التنبيه والإيقاظ، والربط بين الأحداث القبلية والبعدية، والقرب والبعد بين الزمان والمكان والمسافة، "ومما هو ملاحظ أن أسماء

(١) دلالات التراكيب: صـ ٣٦٦ .
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن: (٩٦/٨).
(٣) روح المعاني: (٣٣٧/٨) .
(٤)خصائص التراكيب: صـ٢٤٤ بتصّرف.

الإشارة تقوم بالربط القبلي والبعدي، وإذا كانت أسماء الإشارة بشتى أصنافها محيلة إحالة قلبية، بمعنى أنها تربط جزءا لاحقا بجزء سابق، ومن ثمَّ تساهم في اتّساق النص فإنَّ اسم الإشارة المفرد يتميّز بما يسمى (الإحالة الموسعة) أي إمكانية الإحالة إلى جملة بأكملها أو متتالية من الجمل". (١)

وهذا يؤكد لنا ما تحمله العبارة من معنى الإجمال الذي سبقه تفصيل، والتفصيل والإجمال ظاهرة واضحة تمام الوضوح في القصص القرآني، وهما لونان من التصريف البياني الذي يمتاز به القرآن الكريم، " وهناك ألوان من الإجمال والتفصيل متصل بالفنّ القصصيّ وأساليب بناء القصة فنيًّا، منها: الإجمال بالحذف والإيجاز، والتفصيل بالإطناب، وهذا اللون أشدّ التصاقًا بالفن القصصي وأدخل إلى حرفية القصّ، وفيه ما فيه من مواضع تظهر جانب الإعجاز القرآني الذي لا يدانيه جهد البشر مهما أوتوا من قدرة فنية على القص المحبوك". (٢)

ومن ثم فإن هذه الجملة برمّتها جاءت مستأنفة عما قبلها لكمال الاتصال، لذا فُصلت عما قبلها بالواو؛ لأنها تنزل مما قبلها منزلة التوكيد المعنوي من متبوعه، وفيها نوع من التوضيح والتأويل للرؤى والمواقف التي شهدها موسى مع الخضر (عليهما السلام) أثناء الرحلة إجمالًا.

و(ما) في قوله: (ما لم تسطع ...) اسم موصول، صلته: تسطع عليه صبرًا، وهذا يُفهم منه تأكيد الأحداث التي فاتت بشكل من الإيجاز والاختصار، وكأن في جملة: "ما لم تسطع عليه صبرًا" إعادة وترجيعًا للأحداث بشكل موجز عن طريق الاسم الموصول وصلته تأكيدًا للأمر الأول. أو يُراد بالموصول هنا: التعميم لكل ما سبق في القصة من أطوار ومراحل، وأنها في جميعها دالة على مطلق وعموم قدرة الله وإحاطته علمًا بكل الأشياء

(١) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب: صـ ١٩، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، طبعة (أولى)، ١٩٩١م.

(٢) أسس بناء القصة من القرآن الكريم، صـ٨٢ بتصّرف يسير .

دون منازع، وقد يكون الموصول للتنبيه والإيماء والفطنة إلى ما جاء في القصة من بدايتها إلى نهايتها؛ ليدرك سيدنا موسى ما تومئ إليه الآيات وما تشير من بدايتها من مقاصد لم يستطع سيدنا موسى تفسيرها، ولا السكوت عنها حتى علمها وأخبر بها.

ولذلك تجد الضمير في جملة الصلة "تسطع" فيه تنبيه وإيقاظ للنفس وشعور بالمسئولية تجاه هذه المشاهد من ناحية، وترديدها وإعادتها في الذهن خاصة في حال الإنكار والنفي كالحال التي كان عليها سيدنا موسى (عليه السلام) من ناحية أخرى.

وتلاحظ أن هذا النفي (لم تسطع) جاء مرادفًا للإنكار والحال التي كان عليها سيدنا موسى مع الخضر، ففى بادئ الأمر أنكر سيدنا موسى على الخضر كل أفعاله التي قام بها واستعظمها، أما هنا (في ختام الآية والقصة إجمالًا) فينكر الخضر على موسى ما كان منه من قلة صبرٍ، وجدالٍ، وإلحاح، ولا ريْب في أن كل ذلك أدى دورًا مهمًّا في إثارة النفس، ثم تهدئتها للحدّ الذي وصلت إليه القصة وهو نهايتها ونتاجها والمقصد منها وهو إثبات صفة العلم لله (عز وجل) وذلك من خلال لفظتي (الإرادة . والرحمة) اللتين تشملان معنى إلهام الله ـ تعالى ـ للخضر بهذه الأخبار المعجزة ، ثم مشاركة سيدنا موسى فى هذه المسئولية وهذا الفكر وهذا العلم الجديد الذي لم يطق السكوت عنه حتى علمه.

أما لفظة (تسطع) بحذف التاء فالمتأمل فيها يجد أن ثمّة فرقًا كبيرًا وبوْنًا شاسعًا بينها وبين لفظة (تستطع) بإثبات التاء كما في الآية: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]، والفيصل فى ذلك هو السياق والمقام الوارد فيه كل من اللفظتين، وفى ذلك يقول الألوسي: "وما ألطف حذف أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقع عنده ذهاب الخضر عن موسى ـ عليهما

(١) سورة الكهف: من الآية (٧٨).

السلام ـ ....، وإنما خصّ هذا بالتخفيف؛ لأنه لما تكرّر فى القصة ناسب تخفيف الأخير، وقيل: إنما خصّ بالتخفيف؛ للإشارة إلى أنه خف على موسى . عليه السلام ما لقيه ببيان سببه". (١)

وأفهم من ذلك أن ذكر التاء في الأولى لعلّة، وحذفها من الثانية لعلّة أيضًا، ومن المعلوم أن زيادة المبنى دالة على زيادة المعنى، والعكس إن قلَّ المبنى قلَّ المعنى، حيث إن المواقف التي مّرت على سيدنا موسى اعترضها ولم يقبلها وكانت عسيرة جدًّا على نفْسه، ولذلك جاء القرآن الكريم بحرف التاء في الأولى، والتاء بطبيعتها حرف ثقيل يشى بثقل وهَمٍّ كان في النفس.

أما حذف التاء في (تسطع) فللدلالة على إزالة اللبس وبيان ما استشكل على النفْس؛ لأنه لما تبيّن لسيدنا موسى الحكمة مما سبق، وفكَّ له الخضر رموز القصَّة وأنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه حذفت التاء، وكأن في هذا الحذف دليلًا على ذهاب المشقة والحرج اللذين كانا سبب القلق والحيرة في نفس سيدنا موسى (عليه السلام)،ومن ثمَّ "كانت قلة الألفاظ موازية لزوال الحال".(٢)

وقد أورد في هذا النص علماء آخرون آراء يرجعونها إلى العامل والرابط النفسيّ في الآية منها: "أن موسى . عليه السلام كان قبل أن يفسر له العبد الصالح أسباب ما قام به من أحداث غير قادر على الصبر، فكأن نطق الكلمة الدالة على ذلك بكامل حروفها لتعبّر تعبيرًا واضحًا عن حالته النفسية، وتكون صيغتها موازية لحالة عدم القدرة على الصبر، أما بعد أن فسّر له الرجل الصالح أصبح موسى ـ عليه السلام في حالة قدرة على الصبر ، فلم يعد ما يدعو إلى تأكيد المعنى الأول باللفظ بعد أن زال أثر المفاجأة عن موسى ـ عليه السلام . فكان أقل لفظ أوْ أدنى صيغة للكلمة كافية للتعبير عن الحال، فقد كان

(١) روح المعاني: (٣٣٧/٨) .
(٢) نظم الدرر: (١٢٣/١٢).

موسى . عليه السلام. يستطيع الاستمرار مع الرجل بعد هذه التفاسير، لوْلا أن الحكمة الإلهية تريد للأمور أن تقف عند هذا الحدّ".(١)

إذن: حذف التاء أو بقاؤها هنا لا يتعلّق بعلَّة نحوية أو صرفية، فكان لابد من وجود سبب آخر ليعدل عن الاستعمال الشائع إلى لغة قليلة الاستعمال، " فالكلمة مع وجود التاء أعطت ملمحًا من ملامح الحركة التي تظهر جانبًا من نفسية سيدنا موسى . عليه السلام. من أثر الرغبة في معرفة الحقيقة للأحداث التي حصلت ولم يعرف سّرها، ثمَّ بعد أن عرف السرّ وأخبره العبد الصالح الحقيقة استقرّتْ نفس سيدنا موسى ـ عليه السلام. وهدأت ، لذا تتابعت المقاطع الطويلة والهادئة بين الألفاظ وبعضها في جو منسجم ومتوافق بين النفس واللغة ".(٢)

وبهذا يتضح لنا أن حذف التاء في (تسطع) للإيجاز والاختصار، والمقام يقتضى ذلك، دل عليه اسم الإشارة قبله (ذلك تأويل...) الذي يحمل في طياته كل ما جرى وسبق من أحداث وتفاصيل، "فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث، وذلك للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه أو أن زمنه أقصر، بخلاف مقام الإطالة والتفصيل، فإذا كان المقام مقام إيجاز أَوْجز في ذكر الفعل فاقتطع منه . كما في "تسطع" ـ وإذا كان في مقام التفصيل لم يقتطع من الفعل، بل ذكره بأوْفى صورة؛ ليجانس النطقُ به الزمنَ الذي يتطلبه كل حدث".(٣)

---

(١) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغويّ واحد في القرآن الكريم: د. عودة الله منيع القيْسيّ، صـ ٩٨، دار البشير، مؤسسة الرسالة، ط (أولى)، عمان، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

(٢) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي: د. تامر سلوم، صـ٤٤، الطبعة الأولى، دار الحوار . اللاذقية . ١٩٨٣م.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د/ فاضل السامرائي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، صـ٩ ، ١٠ بتصرّف .

ومن هنا فإن كلمة (تسطع) بحذف التاء دلّتْ على قصر زمن الصبر لدى سيدنا موسى (عليه السلام)، حيث كان لا يطيق هذا الصبر، فهو على عجلة من أمره . كما هو حاله وأدبه الذي أخبر عنه القرآن الكريم: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[1]، حتى في هذا المقام، قال . تعالى .: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[2].

وفي ذلك دلالة على أن الصبر في هذا الوقت كان من الصعوبة بمكان، وإنها لكبيرة إلا على من جدَّ على شيء. "وقال الخضر لموسى . عليه السلام. إنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ...". [3] فدل ذلك على صعوبة الموقف وحدّته، وعلى قلة صبر سيدنا موسى وأنه معذور في ذلك.

وجاء الضمير في قوله : "عليه صبرًا" مؤكّدًا لقوله: "ذلك" وهي الأمور التي وقعت، وكأن الجملة برُمّتها جاءت لتكشف النقاب والستار عن باطن الأفعال المنكرة.

كما يلحظ تقديم الجار والمجرور "عليْه" على عامله "صبرًا" ؛ "لأن المراد تخصيص هذه المشاهد التي أقامها الخضر واستعظمها وأنكرها سيدنا موسى . عليه السلام. ولم يصبر عليها. ووجه آخر: وهو أن في تأخير صبرًا توافقًا لرؤوس الآيات". [4]

ومما يلحظ أيضًا تنكير كلمة "صبرًا"؛ للدلالة على التقليل من مرتبة الصبر، والتنفير مما يحدث، وفي ذلك إشارة إلى ضيق المقام المشوب بالعتاب الناتج عن كثرة السؤال وقلّة الصبر، وكأن الخضر أراد أن يقول لسيدنا موسى: ضاق بك الحال وكثر عليك السؤال وكثُرت على بصرك المشاهد

(١) سورة طه: من آية (٨٤) .
(٢) سورة الكهف: الآيتان (٦٧ – ٦٨).
(٣) صفوة التفاسير: محمد على الصابوني (٢٠٢/٢).
(٤) تفسير التحرير والتنوير : (١٧٧/١ بتصرّف) .

والمواقف فلم تعد تصبر صبرًا واسعًا منيعًا، ويذكر الألوسي: "وفي هذا التنكير . خاصة بعد تكريره فى القصّة . معنى تشديد العتاب".(١)

ثم ترى كلمة "صبرًا" ومجيئها بعد نفي الاستطاعة في قوله: "ما لم تسطع" مؤكّدة أيضًا على قلة جَهد سيدنا موسى ولأيه فى تحمل الأمور التي شاهدها ورآها رأي العيْن، خصوصًا وأن الصبر استطاعة وقدرة وتحمل، وما أشار إليه الخضر كان نقيض ذلك، فدلّ على التقليل من حدة الصبر، ومن ثم كان العتاب من الخضر إلى سيدنا موسى (عليه السلام) مشيرًا إلى حبّ المُعلم وحنانه وعطائه لتلميذه، وقد أشار القرآن إلى ذلك في مطلع القصة، حيث قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.(٢)

روافد النَّغم في الآية الكريمة :

يُلحظ في الآية الكريمة تشجية وتطريب وتناغم إيقاعيّ متتالي، وتناسق بديعي عبْر النونات الكثيرة المصحوبة بالتنوين، وانظر لترى الكلمات: (أمَّا . فكان . غلاميْن . يتيميْن . وكان . كنز . أبوهما . صالحًا . أنْ . أشدهما . كنزهما . رحمة . مِنْ . وما . عن . أمري . ما . لم . صبرًا)، ولعلك راءٍ فيها أصواتًا طويلة وهي الألفاظ الممدودة المتماوجة إلى أعلى، مع التكرار العام في الآية في بعض ألفاظها، مما يزيد هذه الألفاظ تمييزًا ووضوحًا في مقام الامتنان والإلزام بالحجة، فضلًا عن جلال القصّة وعظمتها في توضيح الرؤى، وتفسير المراد بشكل يشعر فيه القارئ بتمكين وإثبات الوحدانية لله ـ تعالى ـ ونسبة الوحي الصادق إليه ـ سبحانه ـ وتحقيق ذلك كله مقابل النفي بالتركيز على بعض الحروف الإيحائية بامتداد صوتها (أعلى وأسفل)، ولك أن تتأمل ذلك حين يقول المولى . جلا وعلا . على لسان الخضر: (وما فعلته عن

(١) روح المعاني : (٣٣٧/٨).
(٢) سورة الكهف: آية (٦٥).

أمري)، ثم كلمة (صبرًا)، وفي ذلك دلالة على أن القرآن يمتاز بحُسن الإيقاع، فتأتي الكلمة في ختام الآيات حاملة تمام المعنى وتمام التوافق الصوتي في آنٍ واحد، "فجرس الكلمات القرآنية عنصر أساسي من عناصر اللغة الإيقاعية".(١)

"والنون كثيرًا ما نراه مكررًا في الكلمات الدالة على نوع من الصوت ذاته".(٢) ولذلك نجد في الآية تناغمًا عجيبًا يظهر من خلال التوافق الصوتي بين بعض الألفاظ، مما يزيدها ترابطًا وانسجاماً فيما بينها، تأخذ كل كلمة بعنق صاحبتها، ويأخذ الكلام، وتأخذ الحروف والجمل بعضها بسبب وحُجز بعض في تناسب يبدو كالسبيكة الواحدة التي أفرغت إفراغًا واحدًا، مما يدل على "أن القرآن الكريم نسيج واحد في بلاغته وسِحْر بيانه إلاّ أنه متنوعٌ في إيقاعه".(٣) وانظر لترى ذلك في الكلمات : (غلامين يتيمين)، (لهما . أبوهما . كنزهما . أشدّهما)، (يبلغا . يستخرجا)، فكلها أصوات إذا أصغيْت إليها وجدتَها متتابعة متلاحقة في بنائها، متناسبة في الوزن أو قريبة منه، يقول د/ أبو موسى: "ثم إن أجراس هذه الكلمات وما فيها من ترديدٍ لأصوات الحروف التي تتكون منها مادة كل وصف من هذه الأوصاف يتداخل ذلك مع هذا الإيقاع المتماوج فتولدت في الآية أصوات خاصة لها رنين متميز يحث في النفْس الإيحاء والإيقاظ؛ لأن صوت الحرف إذا ما تكرر كان كأنه فقرة تتبع أخرى على وترٍ واحدٍ، فيتميز الرنين ويقوي باعث الإيقاظ والتأثير".(٤)

---

(١) التناسق الصوتي البديع في تعبير القرآن الكريم: د/ فايزة عثمان أبو زيد، بحث نشر في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة . جامعة الأزهر . العدد (٢٧)، صـ (٢٢٨٠) سنة ٢٠٠٩م .

(٢) التكرير بين المثير والتأثير: د/ عز الدين على السيد، صـ١٥، ط (الثانية)، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

(٣) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، صـ٣٣٤، دار العلم للملايين؛ بيروت، ط (٧)، سنة ١٩٧٢م.

(٤) دراسة في سورة الأحزاب: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ١٩٧٢م، صـ٨٥ بتصّرف.

ونفهم من كلام شيخنا الجليل بيان الأثر الصوتي للقرآن الكريم (على القارئ والسامع) في جميع أحواله وآياته الدالة على الفرح والحزن، والحنين والأنين، والشدة واللين ... إلخ، وأن مراعاة القرآن لهذا الجانب الصوتي وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد عنى بالحديث عن ذلك كثير من علمائنا البلاغيين . حفظهم الله . قديمًا وحديثًا.

ومن الملامح الصوتية في الآية ما نجده من طبيعة الأصوات المفخمة المنسجمة مع أصوات الترقيق، حيث بدأت الآية واستمّرت في سياقها مع الحروف المرققة ذات الملمح الهادئ، فارتبطت الأصوات المرققة بموقف التفسير والتعلم داخل القصة؛ إذ يتطلب ذلك جوًّا من الهدوء الناشئ عن تلك الأصوات المرققة إلى أن يظهر الصوت المفخم فينكشف معه سّر المفاجأة التي اكتنفت الأحداث، ويكمن ذلك في الألفاظ: (غلاميْن . صالحًا . يبلغا . يستخرجا . رحمة . ربك . صبرًا)، ومما لا ريب فيه أن ذلك يعطي انسجامًا وتوافقًا بين طبيعة الصوت والمعنى، أو ما يسمى بـ "المعنى الصوتي" . [1]

ثم يأتي دور التكرار في الآية، وهو تكرار متنوع من حيث الحروف والكلمات والجُمل والصيغ، وذلك دال على عنصر الحركة الذي يتفاعل بين الشخص والحدث، مما يزيد القارئ تأملًا وشعورًا بالدهشة والتركيز على الحدث نفسه بغضّ النظر عن أسباب المفارقة الزمانية أو المكانية في القصة، ودون الاهتمام بمعرفة بقية الأحداث الفرعية الأخرى؛ "لأنه ليس من منهج القرآن الكريم أن يهتم بذكر الجزئيات والتفاصيل الدقيقة المتصلة بالموضوع، فهو فقط يسهم في تحقيق مقاصده التربوية والعقدية".[2]

(١) وهو معنى الصوت المفرد، أو معنى عدة أصوات متجانسة أو متقاربة بحيث تظل فيما بينها متميزة " لفظا ومعنى وصوتا ". ينظر في ذلك: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د/ تامر سلوم، صـ ٤٤ بتصّرف يسير.

(٢) جماليات الترابط في قصص سورة الكهف، صـ٣٢ .

فمع كل تكرار كان سيدنا موسى . عليه السلام- والسامعون يزدادون شوْقًا وإثارة حتى تقف الأحداث وتثبت الصورة؛ لتتكشف الأسرار وتهدأ النفوس بعد قوله: (هذا فراق بيني وبينك) فتظهر عبارة جديدة هي عبارة التفسير والتأويل لما حصل من أحداث : "أمَّا" وتكرارها في الآيات : "أما السفينة فكانت"، ويتبعها: "وأما الغلام فكان أبواه" ، ويماثلها: "وأما الجدار فكان لغلامْين يتيْمين" وهكذا تنتهي قصة سيدنا موسى مع الخضر بكل هدوء واستقرار وأريحية كامنة في النفس.

"ثم تعود (أما) بفاعليتها التي نشطت في سياق القصة من حيث التكرار اللفظي لتفيد التفصيل في الجانب المعنوي . أيضًا . لربط الأحداث ببعضها داخل السورة ومكوّناتها القصصية بالإضافة إلى ما شكله التكرار من وقع إيقاعي بيْن "أمَّا" وما تحمله من تفصيل وترتيب يشكل ظاهرة إيقاعية وسرديّة فاعلة". (١)

وفائدة التكرار بـ "أمَّا" هنا قويَّة جدًّا في الربط والتلاحم بين الأجزاء، وهذا النوع من التكرار يسمى بالبناء، " والبناء هو إعادة اللفظ الواحد بالعدد وعلى الإطلاق، المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعدًا؛ خشية تناسى الأول لطول العهد في القول". (٢)

ولاحظ هذا التكرار العجيب والنغم البديع في كلمة (كان)، مما يؤدي إلى زيادة الإيضاح والاهتمام بالأمر وتمييزه، وللتكرار قيمة جمالية ومعنوية، "فهو يشكل القانون الأساسي لظواهر الإيقاع في الكلام، وهو علاوة على قيمته الإيقاعية النغمية ذو دلالة تعبيرية"(٣)، فجاء التكرار في الآية لغرض تثبيت

(١) الاتساق والانسجام في سورة الكهف، تأليف/ محمود بوستة، صـ١٢٧ وما بعدها بتصرف، ١٤٣٥هـ / ٢٠٠٩م.

(٢) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: د/ جميل عبدالحميد، صـ ٨٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٨م.

(٣) البلاغة والمعنى في النصّ القرآني تفسير أبي السعود نموذجًا ، صـ١٨٧، د/ حامد=

الأمر وتمكينه وترسيخه في ذهن المخاطب، بدليل التعبير بصيغة الماضي الدالة على تحقيق الأمر وثبوته، فضلًا عن الدلالة على التماسك بين القصص في السورة وأنها لُحمة واحدة من بدايتها إلى نهايتها، "ولا خفاء في أن التكرار مطلوب؛ لأن القرآن دعوة، والنفس الإنسانية في حاجة إلى التذكير والتأكيد ـ لما جُلبت عليه من ضعفٍ وطبعت عليه من نسيان . ثم إعادة التذكير والتنبيه والتخويف من السهو والإهمال والغفلة". (١)

وهذا معناه أن المتكلم يلجأ أحيانًا إلى التكرار؛ لتأكيد فكرة معينة يغرس من خلالها أثرًا نفسيًّا لدى المتلقي أو السامع، حيث "إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ويأتي بأعظم الآثار".(٢)

وهذا دليل على أهمية التكرار في أفهام المعنى " فقد ورد التكرار كثيرًا في القرآن الكريم لأغراضٍ يقتضيها المقام والحاجة إلى التوصيل، ويؤتى به لأغراض عديدة منها التأكيد والإفهام". (٣)

ومن أسرار التكرار أيضًا: التوازن بين الكلمات وبعضها، وبين الصيغ وبعضها، وبين التراكيب وبعضها، وبين الحروف وبعضها، وبين الآيات وبعضها، وتلك قمة الإعجاز وغاية الإحكام في آي القرآن، وتطبيق ذلك على الآية في قوله: "وأمَّا" بتكرار حرف العطف مع (أمَّا) التفصيلية، والأفعال مثل "كان" في قوله : (فكان لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحًا) ليوازن في الصلاح بين الآباء والأبناء، ثم التعبير بالمضارع في (يبلغا ـ ويستخرجا) للمشاركة في الدلالة على التجدد في الحدث واستمراريته، ثم قوله : "فأراد

=عبدالهادي حسين، مطبعة هيئة إدارة الوقف السنيّ، بغداد، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م.

(١) أسس بناء القصَّة من القرآن الكريم: صـ ٦٨.

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين: عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط (أولى)، سنة ١٩٧٤، صـ ٤١٥.

(٣) التوكيد في النصّ القرآني: د/ نبراس جلال عباس، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، العدد (١٠١)، صـ ٢٩٧ .

ربك"، "رحمة من ربك" ليوازن ويعدل بين الإرادة والرحمة، فكلاهما يصبان في منبع واحد وهدف واحد وهو بيان جلال وعظمة الله وسلطانه وسعة رحمته بالمخلوقين، ثم قوله: "وما فعلته عن أمري"، "ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا" وفي الجملتين معًا تأكيد على شيءٍ واحدٍ ودلالة واحدة هي علم الله ـ تعالى ـ وإحاطته وحده بأسرار الكون، وفى ذلك تمام المعنى بتوقف العقل عن الذكاء والاستنباط للأشياء التي لا يستطيع إدراكها بشر مهما كان علمه ومهما بلغت منزلته ومهما علا شأنه؛ وذلك لأنها بإلهام من الله وإرادة، ولا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق، فسبحان مَن إذا قضى أمرًا أن يقول له كن فيكون. ومن ذلك التكرار الموجب للتوازن ـ أيضًا ـ كلمة (تسطع) بحذف التاء، ورغم أن التاء حذفت منها إلا أنك تجدها متطابقة مع الصيغة قبلها المذكورة فيها التاء وهي " تستطع"؛ وذلك لإحداث التوازن بين الآيتين من حيث الموقف والسياق المقامي والحالي، " فكانت قلّة الكلمات في الآية الأولى توجب إتمام حروف الصيغة الأولى، وكثرة الكلام في الآية الأخرى تسمح بتقليل حروف الصيغة الثانية؛ وذلك ليحدث توازن بين الآيتين، قليلة الكلمات اكتملتْ فيها الصيغة، وكثيرة الكلمات نقصت منها حروف الصيغة". (١)

ثم يبين د/ عوْدة الله القيْسّي سبب التوازن بين الصيغتين فيقول : "إن كلمات الآية التي وردت فيها صيغة "لم تستطع" كانت أقل إلى الثلث من كلمات الآية التي وردت فيها "لم تسطع" ... وقد وقع الحذف على التاء خاصّة دون غيره؛ لأن في الكلمة حرفًا يُغنى عنه؛ لقربه منه في المخرج وهو "الطاء". (٢)

كما تجد توازنًا ـ أيضًا ـ بين الحروف في كلمة (ربك) في قوله: "فأراد ربك"، "رحمة من ربك"، "وأضيف لفظ (رب) إلى كاف الخطاب في

(١) سّر الإعجاز في القرآن الكريم: د/ عودة الله منيع القيْسي، صـ٩٨.
(٢) السابق نفسه.

الموضعيْن؛ لما فيها للمؤمن من طمأنينة وأنس وراحة، وخاصة في مقام العناية والحفظ من طغيان الطغاة".(١)

والمتأمل في الموضعين يجد أنهما مشتركان في حرف "الراء" الدال على التكرير والدوام، مما يشير إلى أن رحمة الله بعباده المؤمنين الصالحين دائمة لا تنفك عنهم أبدًا، فكلا اللفظيْن . إذَنْ . رادّ على الآخر معنًى وصوتًا.

ومن ثَّم فإننا نجد للتكرير والتوكيد فوائد عديدة نلمسها ونتحسسها ولا نكاد نغفل عنها حين تلاوتنا لكتاب الله . عزَّ وجلَّ . ، منها : "الإشعار بفخامة أسلوب القرآن وقوته وجلاله ...، والانسجام الموسيقيّ الذي فيه تؤلف العبارة من كلمات متسقة ذات حركات وسكنات يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراء هذا النظام من موسيقى واتساق، وإن هذه الموسيقى التي تكمن وراء هذا النظم هي التي مكَّنت المرتّلين من تلاوته بهذه الأنغام الموسيقية". (٢)

❁❁❁❁❁

(١) التناسق الصوتي البديع في القرآن الكريم : صـ٢٣٠٣ بتصّرف.
(٢) من بلاغة القرآن: د/ أحمد البدوي، صـ٨٦، ٨٧ .

المبحث الثالث

توبيخ الإنسان على بخله وترك إكرام اليتيم مع الغِنى

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾. (١)

المعنى العام:

جاءت هذه الآية الكريمة امتدادًا للآيتين قبلها، وهي قول الحق ـ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾. (٢)

وفي الآيات الثلاث معًا وصف لحال الإنسان وهو في محل ابتلاء واختبار من الله ـ ﷻ ـ ، فيبتليه الله بالإكرام والسَّعة لينظر هل سيشكر أم يكفر؟ فمن شكر فله المزيد وحُسنْ الجزاء، ومن كفر فله السخط وزوال النعمة، ثم يبتليه بالضيق والإقتار لينظر هل سيصبر أم سيجزع؟ وعلى كلٍّ فالإنسان يفرح بالنعم عند الرخاء، ويتنكر لآلاء ربه عند الضيق والمعاناة وشظف العيش، وليته إذا أنعم عليه تظهر عليه آثار هذا الإنعام والإكرام بالبرّ والإحسان إلى اليتامى وإطعام المساكين، إن مثل هؤلاء يتعاملون مع ربهم ـ سبحانه ـ بحساباتهم المادية الضيقة، فإنْ أُعطوا رضوا، وإن لم يُعطَوْا إذا هم يسخطون، وشأنهم في ذلك كشأن من قال الله في حقهم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾(٣)، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾. (٤)

---

(١) سورة الفجر: آية (١٧) .
(٢) سورة الفجر: الآيتان (١٥ ، ١٦) .
(٣) سورة التوبة: الآية (٥٨).
(٤) سورة الحج: الآية (١١).

ففي سورة الفجر . يردّ الله . ﷻ. عليهم بقوله: " كلاّ" أي ليس الأمر كما تظنون وتزعمون، فليست السَّعة أمارة على إكرام الله للإنسان، وليس الضيق أمارة على إهانة العبد، وإنما يعطي الله . تعالى . ويمنع لحِكَم بيَّن لنا بعضها فيعلمها مَن يعلمها ويجهلها من يجهلها، منها: ليعلم الصادقين من الكاذبين، والمؤمنين من المنافقين، والشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الساخطين، ويعلم الشقيّ من السعيد، وليَمِيز الله الخبيث من الطيب، ولله درّ القائل:

أفعالـــــــه مُحكمـــــــة قـــــلَّ مَـــــنْ يفْهمُهـــــا
يفعـــــل مـــــا يَشـــــاؤه لحِكمـــــــة يَعلمهـــــــا

وفي هذا بيان أن الابتلاء لا يكون في الشرّ وحده . كما يتصّور بعض الناس .، وإنما يكون بالشر والخير، باليُسر والعُسر، بالصحة والمرض، بالغنى والفقر ... إلخ، قال . سبحانه . : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. (١)

مناسبة الآية لما قبلها وبعدها:

(بعدما بين . سبحانه . صحة المفاهيم في العطاء والمنع جاء في هذه الآية وبين حقيقة فتنة المال إيجابًا وسلبًا جمعًا وبذلًا فبدأ بأقبح الوجوه من: الإمساك من عدم إكرام اليتيم مَهِيض الجناح مكسور الخاطر، والتقاعس عن إطعام المسكين خالي اليد جائع البطن ساكن الحركة، وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسكون عنها). (٢)

وذكر البعض بيان علاقة الآية بما قبلها من " أن الله . ﷻ. لماّ بيَّن خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو قتر عليه، أردف ذلك بزجرهم

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٥).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ت/ محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، (٥٢٦/٨)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

عما يرتكبون من المنكرات، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يعمه الطغيان، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان، وكانوا على الحال التي يرتقي إليها الإنسان لشعرت نفوسهم بما عسى يقع فيه اليتيم من بؤس، فعنوا فيه العناية به ورفع منزلته ولو كانوا على ما تحدثهم به أنفسهم من الصلاح".(١)

وذكر أيضًا: "أنه . ﷻ. لما حكى من أقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال: بل لهم فعل هو شرّ من هذا القول، وهو أن الله . تعالى . يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم فقال: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾". (٢)

وقيل: " وفي الآية تمهيد لقوله :﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ (٣)، وهو الإشارة إلى التنديد بحب المال الذي يحمل على منع الحقوق(٤)، وترك مال اليتيم الذي على وجوه:

- عدم إعطائه حقّه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾.
- ترك برّه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾.
- دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾.
- أخذ ماله منه جمعًا وطمعًا، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، والحب هنا هو زيادة شيء على شيء بقصد الجمع والاكتناز، وفي ذلك إشارة إلى أخذهم أموال اليتامى وضمها إلى أموالهم الخاصة". (٥)

---

(١) تفسير حدائق الرّوْح والريحان فى روابي علوم القرآن: ت/ محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الشافعي (٤٠١/٢١)، طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط(الأولى)، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

(٢) تفسير الإمام الفخر الرازيّ : (١٥٨/٣١) .

(٣) سورة الفجر: الآيتان: (١٩، ٢٠) .

(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري (٥٦٩/٥)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الملكة العربية السعودية، ط (الخامسة)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

(٥) تفسير الرازيّ: (١٥٧/٣١) بتصّرف يسير .

التحليل البلاغيّ:

قوله: (كلّا) حرف ردع، "وهي من أعظم أدوات الزجر"(١)، وجاءت تعليلًا للتوسعة والإقتار، "ولما كانت نسبة هذا إليه توبيخًا وتقريعًا لقصور نظره فإن الإقتار قد يؤدي إلى سعادة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى شقاوتهما، وهذا أكثر ما يوجد، قال ردعًا عن مثل هذا القول بأعظم أدوات الزجر معلّلًا للتوسعة، والإقتار "كلَّا": ردًّا على قولهم ومعتقدهم". (٢)

ومن هذا يتبين أن (كلّا) أفادت هنا النفي والردع بشدة، وفي ذلك تنبيه لهم إلى جهلهم بحكمة الله . تعالى .، فكأن الله أراد أن يُعلمهم بأن السعة لا تكون أمارة إكرام الله للعبد، ولو كانت كذلك ما اقتضى إيجابه للسعادة؛ لأنه لا يكرم اليتيم ولا يستعمل ماله في الإنفاق على المساكين والمحتاجين، وفي ذلك إشارة لهم أيضًا إلى معرفة قَدْرهم، وأن فى هذا استهجانًا لهم ونقصًا من شأنهم، وكيف لا؟ والجزاء من جنس العمل.

وفي هذا الأسلوب الرّادع معنى إنكار وإبطال كلا القولين السابقيْن؛ لأنهما صادران عن تأويل باطل وشبهة ضالة، " فمناط الرَّدْع جَعْلُ الإنعام علامةً على إرادة الله إكرامَ المنعَم عليه، وجَعْلُ التقتير علامةً على إرادة الإهانة، وليس مناطه وقوع الكرامة ووقوع الإهانة؛ لأن الله أهان الكافر بعذاب الآخرة، ولو شاء إهانته في الدنيا لأجل الكفر لأهان جميع الكفرة بتقتير الرزق، وبهذا ظهر أن لا تنافي بين إثبات إكرام الله ـ تعالى ـ الإنسان بقوله: "فأكرمه" وبين إبطال ذلك بقوله: "كلّا"؛ لأن الإبطال وارد على ما قصده الإنسان بقوله: "ربي أكرمن" أن ما ناله من النعمة علامة على ﷺ".(٣)

---

(١) معانى الحروف: للرماني النحوي: تحقيق: د/ عبدالفتاح إسماعيل شلبي، صـ١٢٢، دار الشروق ط(الثانية) ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م .

(٢) نظم الدرر: (٤٢٤/٨) .

(٣) التحرير والتنوير : (٣٣١/٣٠) .

ومما يُلحظ في هذا الأسلوب الرّادع " كلّا" تكرارها في السورة، وهي بشكل مجمل لفظ ردع وتنديد لهؤلاء يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه، وهو يرسم بجرسه شدّة التكالب وعنفه كما يصفه الشيخ/ سيد قطب فيقول: "وقد كان الإسلام يواجه في مكة حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق، تورث القلوب كزازة وقساوة، وكان ضعف اليتامى مغريًا بانتهاب أموالهم، وبخاصّة الإناث منهم في صور شتى، وبخاصة فيما يتعلق بالميراث، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام، وهى سمة الجاهليات في كل زمان ومكان حتى الآن".(١)

ومن هنا يتبين لنا أن لفظ "كلّا" جاء ردًّا وتأكيدًا على المعنى السابق، وهو الرد على سوء فهم الإنسان؛ زجرًا وردعًا له عن اعتقاده وتصوره السابق، "فليس الأمر كما يظن أن الغني لفضله، والفقر لهوانه، وإنما الغني والفقر من تقدير الله وقضائه، وعلى العبد أن يحمد الله . ﷻ على الفقر والغنى"(٢).

ثم تأتى "بل" في قوله: "بل لا تكرمون اليتيم"، وهي حرف عطف، "وتقع بعد النفي أو ما يجرى مجراه، وإذا جاءت في القرآن كانت تركًا لشيء وأخذًا في غيره، وأكثر ما تأتى بعد الإنكار".(٣)

ومن ثَّم فإنَّ (بل) في الجملة حرف عطف يفيد الإضراب من قبيح إلى أقبح للترقي في ذمّ هؤلاء بقبيح الأقوال إلى النعي عليهم بقبيح الأفعال التي هي شّر من سابقتها، "وفيها إضراب انتقالي، والمناسبة بين الغرضين: المنتقَل منه والمنتقَل إليه مناسبة المقابلة لمضمون (فأكرمه ونعَّمهُ) من جهة ما توهَموه أن نعمة مالهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم، فنبههم الله على أنهم إن أكرمهم الله فإنهم لم يكرموا عبيده شحًّا بالنعمة؛ إذ حرموا أهل الحاجة من

(١) في ظلال القرآن: ص (٣٩٠٦) .
(٢) التفسير المنير: للزحيلي، (٢٣٤/٣٠) .
(٣) معاني الحروف: للرماني، ص (٩٤) .

فضول أموالهم وإذ يستزيدون من المال ما لا يحتاجون إليه، وذلك دحض لتفخرهم بالكرم والبذل"[١] .

ويؤكد هذا القول ما ذكره الراغب الأصفهاني " بأن [بل] كلمة للتدارك، وهو ضربان، عدَّ منهما ضربًا يناقض ما بعده ما قبله ويقصد به تصحيح الأول وإبطال الثاني كما في الآية (...كلّا بل لا تكرمون اليتيم)، أي ليس إعطاؤهم المال من الإكرام ولا منعهم من الإهانة، لكن جهلوا ذلك لوضعهم المال غير موضعه".[٢]

ثم يأتي دور "لا" النافية بعد قوله : (كلّا بل)؛ لتؤكد ما مضى من معانٍ، وفي النفي معنى الإهانة لهم. وقوله " بل لا تكرمون اليتيم" فيه كناية عن البخل والشحّ الشديدين، أو كناية عن عدم الإحسان إليهم، أو عدم إعطائهم حقوقهم.

وفي جملة (تكرمون) التفات من ضمير الغائب إلى الخطاب، والأصل: بل لا يكرمون اليتيم حملًا على المعنى قبله في كلمة الإنسان ويراد بها عموم جنس الإنسان، وجاء هذا المعنى . أيضًا . من قراءة أبي عمرو "يكرمون"، "وذلك لأنه لما تقدم ذكر الإنسان ويُراد الجنس والكثرة، وهو على لفظة الغيبة حمل "يكرمون" عليه.[٣]

والسّر البلاغي في هذا الالتفات إلى الخطاب هو زيادة التوبيخ والعتاب، وتشديد التقريع وتأكيد التشنيع بهم "وفيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه، والجمع باعتبار معنى الإنسان؛ إذ المراد هو الجنس، أي: بل لكم أفعال وأحوال أشدّ سرًّا مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله ـ

(١) التحرير والتنوير: (٣٣٢/٣٠) .

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص (٤١) ، و/ تاج العروس : (١١٩/٢٨)، تأليف/ مرتضى الزبيدي، تحقيق/ مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية ـ طبعة سنة ١٩٦٥م.

(٣) تفسير الرازي: (١٥٧/٣١).

تعالى . بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة والإحسان إليه".(١)

والالتفات أسلوب بلاغي من أساليب القرآن الكريم "وهو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحدٍ".(٢)

ومن ثمَّ فإن في هذا الالتفات قيمة عظيمة تعود على السامع في إقباله على المتكلم بكل جدّ ونشاط، وفي إقبال المتكلم على السامع بكل عناية واهتمام، وتخصيص بالمواجهة، وهذا أليق للذمّ وأوقع منه بالغيبة والعتاب.

والتاء في (تكرمون) جاءت للخطاب، وفيها معنى المواجهة مع ملاحظة ذكر كل من الفعل المضارع (تكرم)، والفاعل (الواو)، والمفعول (اليتيم)، ومعنى ذلك أن الفعل جاء مكتمل الأركان من فعل وفاعل ومفعول، وفي ذلك دلالة على الإحاطة بهم والتخصيص بالإهانة المباشرة لهم، "والتاء للخطاب مقصودة ، ومفادها الالتفات، وسّره هنا أي: بل أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، ولذلك أخرج الكلام على الخطاب، فكأن الله قال : بل لستم تكرمون اليتيم فلذلك أهنتكم".(٣) وبذلك تكون إهانة العبد مسببة عن عدم إكرام اليتيم، وجاء تقديم المسبب على السبب (مع أن تقديم السبب هو الأصل)؛ للإحاطة التامة بهم، وشعورهم بالخذلان والنقص عند المواجهة بفضيحتهم والتشنيع بهم عندما يُذكر لهم السبب والدليل، وفي لفظ (ربي) في الموضعين: الإكرام والإهانة ما يشعر بالانكسار والتذلّل والتذكّر بأن الله ـ تعالى ـ هو المطاع وهو صاحب التصرف وله مطلق الحرية في عباده، فهو المربّى لهم

(١) روح المعاني: (٣٤١/١٥).
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني، صـ ٧٤، دار إحياء العلوم . بيروت . لبنان . ط (٤) . ١٩٩٨م .
(٣) تفسير الطبري: (٤١٢/٢٤)، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، نشر مؤسسة الرسالة ، ط (١)، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

والمتعهد برزقهم والمتكفل برعايتهم . سبحانه جل ثناؤه وتعالى -، وكأن الله أراد أن يقول لهم: لأجل أنكم لا تكرمون اليتيم فإني مبتليكم في هذا المال الذي تجمعونه بالخير أو الشر، بالسعة أو الضيق، ومن هنا يتضح لنا أن هذه الآية متصلة بما قبلها اتصال معنًى، فهما من معدن واحدٍ لا يمكن لأحدهما الفصل عن الآخر.

ويلحظ هنا مجيء الفعل (تكرمون) بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ لإفادة تكرر ذلك الفعل وتجدده كلما حصل مضمون الشرطين السابقين، فكأن نفي إكرام اليتيم عنهم وصف مطلق لهم غير مقيد بوقت أو زمن، ومن هنا نفهم أن إيثار القرآن الكريم للفظ التكريم دون الإكرام في هذا الموضع أبلغ وأدوم وأعم من ناحيتين: تكريم الله لليتامى، ثم التبكيت الدائم لمن نفى عنهم هذا التكريم من ذوي الأموال الضالين، بدليل قوله . تعالى . بعد ذلك عنهم: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، وكأن الله . تعالى . أراد أن يقول لهم : إنكم لا تكرمون اليتامى ولا تحاضون على طعام المسكين بسبب طمعكم وأكلكم للميراث، وحبكم الدائم للمال دون خجل أو رجوع إلى الحقّ.

و "أل" في "اليتيم" للجنس المفيد لعموم جنس اليتامى سواء كان الفقير منهم أم الغني ويشمل الغنيّ؛ لأنه ينبغي الإحسان إليه وإكرامه وبّره؛ لأنه انكسر قلبه بفقد أبيه ومن يتولّى أمره ويقوم بمصالحه، فأوصى الله به حتى يزول هذا الكسر الذي أصابه، "والمتأمل في الآية يجد أن اليتيم حظه الإكرام، فإن كان غنيًّا فإنه يكرم ليتمه ولا يطعم لغناه، وإن كان فقيرًا فإنه يكرم ليتمه ويُطعم لفقره".(١)

(١) شرح رياض الصالحين: تأليف/ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (٨٩/٣) ، دار الوطن للنشر، الرياض ، طبعة ١٤٢٦هـ .

وفى ذلك دلالة على وجوب الرفق باليتامى؛ لضعفهم وقلة ناصرهم، وأنهم محتاجون لمن يسدّ ثُلمتهم ويدفع حاجتهم، ولا ريب فى أن كل ذلك محتاج إلى قلوب رحيمة، عطوفة، ودودة، مخلصة ، خصوصًا وأن الله . تعالى . أوصى بهم في كتابه العزيز، ولا شك في أن ذلك يضع في قلب المؤمن التقي إنابةً إلى الله . ﷻ . نحوهم بالعطف واللين والرحمة.

وقيل: "إن جملة "لا تكرمون اليتيم" جملة استئنافية كما يقتضى الإضراب، فهو إما استئناف ابتداء كلام، وإما اعتراض بين (كلَّا) وأختها (لا)". (١)

وقيل: "في الآية احتباك؛ لأنه لما نفى إكرامهم اليتيم، وقوبل بعد ذلك بنفي أن يحضوا على طعام المسكين علم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك،

ومن ثم عُلم أنهم لا يُطعِمون المساكين من أموالهم". (٢)

كما أن في الآية توضيحًا وبيانًا لحقيقة حالهم التي تتبع منها هذه التصورات، وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم من خلال تكرار حرفي (اللام، والميم)، "وكلاهما مبيّن لتقرير حالهم وما ينتظره في مآلهم، فقد جاء بعدها ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول اللاذع لهم، والتهديد الآخر المفزع لهم".(٣)

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير: (٣٣٣/٣٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٣٣٣/٣٠).

(٣) الأساس في التفسير: سعيد حوّى، نشر دار السلام، القاهرة الطبعة السادسة، سنة ١٤٢٤هـ، (٦٥١٠/١١).

المبحث الرابع

إطعام اليتيم القريب سبب من أسباب النجاة في الآخرة

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾.[1]

المعنى العام :

جاءت هذه الآية الكريمة امتدادًا للآيات قبلها، فبعد أن بيّن الله ـ ﷻ ـ أن اقتحام العقبة (النار) طريق شاق ومسلكه وعر وجليل الخطر، ولا يمكن قطعه ومجاوزته إلا بجهاد النفس والشيطان وأعمال البرّ والإحسان، بيّن ـ سبحانه ـ هنا نوع هذه الأعمال والفضائل؛ لأنه قد يكون بين الإنسان وبين ما يريد البلوغ إليه عقبات تتلوها عقبات، فكان سبيل الوصول إلى غايته هو الإحسان إلى الخَلق وفعل هذه الخيرات، التي فيها: عتق رقبة، والإطعام في يوم ذي مسبغة (مجاعة)، والمُطعَمُ إما يتيم من ذوي القربى، أو مسكين محتاج قد لصق جسمه بالتراب لم يبق له شيء.

التحليل البلاغيّ :

جاء قوله: (يتيمًا)على النصب بالمصدر قبله، أي أنه مفعول "إطعام" في قوله: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾[2]، والتقدير: يطعمون ذا مسغبة، ويطعمون يتيمًا ذا مقربة؛ لأن المصدر يعمل عمل الفعل، وفي ذلك دلالة على أن الآية من جنس ما قبلها وأنها متصلة به اتصال معنًى؛ لأن المعنى في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[3]، مبهم، أي: أيُّ شيء أعلمك ما اقتحامها؟ فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾، فكان هذا بيانًا

(١) سورة البلد: آية (١٥).
(٢) سورة البلد: الآيتان (١٤ ، ١٥).
(٣) سورة البلد: آية (١٢).

وتفسيرًا لقوله ـ آنفًا ـ: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ ﴾، "والمعرف باللام إذ أعيد كان الثاني عيْنَ الأول، فتكون الجملة معترضة مقحمة لبيان العقبة مقررة لمعنى الإبهام، وعلى ذلك فإن ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ مُفسَّرة ومبيَّنة بقوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ ﴾. (١)

إذن: جاء قوله: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ضمن ما جاء مفسِّرًا لما قبله من بيان العقبة التي يجب أن يقتحمها الإنسان بما تهيأ له من وسائل المكابدة وطاقة المجاهدة والإدراك والتمييز، وتأمل قوله . تعالى . بعد ذلك : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾(٢) ، وهذا له عظيم صلة بما نحن بصدده، "وفى ذلك دلالة على أن المؤمن جدير بأن يقاوم طغيان المال وغرور القوّة، وأن يحتمل أعباء الإيثار من أجل خير الجماعة على ما في ذلك من مشقة وعناء".(٣)

ثم ارجع وتأمل قوله: "يتيمًا ذا مقربة" مرة ثانية تجده نوعًا من أنواع الأعمال الصالحات التي يحثنا عليها ربّ الأرض والسموات، وأنها ضمن مجاوزة العقبات. كما تجد أن هذا المعنى (بعد قوله: "فلا اقتحم العقبة") دالّ على التوبيخ على عدم اهتداء الإنسان للأعمال الصالحة مع قيام أسباب الاهتداء التي دلّت عليها السورة الكريمة من : الإبصار، والإدراك، والنطق، والتمييز بين النجْدين (طريق الخير وطريق الشرّ)، واقرأ قول الله . جلَّ وعلا.: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾(٤).

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: (١٥/٢٤٤ ، ٢٤٥).
(٢) سورة البلد : آية (١٧).
(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم: تحقيق: د/ عائشة محمد علي عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، (١/١٨٦).
(٤) سورة البلد: الآيات (٨، ٩، ١٠).

مما يدل على أن الآيات في السورة جاءت لُحمة واحدة، متماسكة الفقرات والجمل والصيغ والتراكيب والبناء، وفي ذلك كله إشارة إلى التنويه بمعرفة المراد من العقبة، "وفي ذلك دلالة على إثارة المخاطب وتشويقه لذكر الخبر خصوصًا إذا كان أمرًا عزيزًا يحتاج إلى من يُعلمك به"[١] ومعنى ذلك أن كل لفظة ونبرة في قوله . سابقًا.: (وما أدراك ما العقبة) نافذة بالقارئ إلى أعماق الوجدان، ومهيئة له، ومثيرة لتشوقه وولوعه بمعرفة ما يعقبه من بيان وتفسير، فيأتي قوله: (فك رقبة ...)، " ولا يفوتنا أن كل هذا الترتيب لخطوات اقتحام العقبة ومراحل النضال من أجل صلاح الإنسان وخير المجتمع". [٢]

وفي الآية معنى إطعام اليتيم؛ لأن الكلام معناه: ويطعمون يتيمًا ذا مقربة، وجيء بلفظ "الإطعام" في هذه الفئة؛ لكونه أشرف وأكرم أنواع الإحسان والإنعام، كما في قوله . تعالى . : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.[٣] وفي الإطعام معنى الإخلاص في تقديم الشيء، بمعنى عدم التقصير في الأداء وإلزام النفْس على ما جبلت عليه من العطية والإكرام.

وفي الآية بيان أن أوْلى الناس الجياع بهذا الإطعام وأُولاهم (اليتيم)، وفي تقديمه على المسكين هنا إشعار بالمسئولية تجاهه؛ لضعفه وعجزه عن الكسب، وأنهم ذوو القربى فهم أوْلى بالإحسان، إذ للقرابة حقّ يجب أن يُرعى، وهذا حضّ على تقديم ذوى النسب والقربَى المحتاجين على الأجانب في الإفضال والإحسان .

وهذا مفهوم من قوله: "ذا مقربة"، والمقربة: مصدر ميمي، من قرب فلان من فلان إذا كان بينهما نسب قريب، تقول: زيد ذو قرابتى وذو مقربتى، (وقولك: قرابتى قبيح؛ لأن القرابة مصدر، يعني يتيمًا بينك وبيْنه قرابة، فقد

(١) التحرير والتنوير : (٣٠/٣٧٥) .
(٢) التفسير البياني للقرآن: (١/١٨٦) .
(٣) سورة الإنسان : آية (٨) .

اجتمع فيه حَقّان: يُتْمٌ وقرابة، فإطعامه أفضل، وقيل يدخل في القرب بالجوار كما يدخل فيه القرب بالنسب) [١] .

"ووجهُ تخصيص اليتيم بالإطعام؛ لأنه مظنَّة قلّة الشّبع لصغر سنّه وضعف عمله وفَقْد مَنْ يعوله، ولحياته من التعريض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رُغِّبَ في إطعامه، وإن لم يصل حدَّ المسْكنة والفقر" [٢] .

ونفهم من ذلك أن وصفه بـ "ذا مقربة" جاء بمقربة من المُطْعِم، لتجتمع الصَدقة والصلة ، وهذا من حيث اليُتم والقرابة، فالإطعام في حقّه أفضل وأوْلى من غيره، وفي الحديث قوله . ﷺ : "صدقتك على المسكين صدقة، وصدقتك على ذى رحمك صدقة وصلة".[٣] وفي الحديث عندما دخل بلال . رضي الله عنه . على سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ ليخبره أن امرأتين بالباب تسألانه: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما؟ فقال رسول الله . ﷺ: لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة ". [٤]

وهذا الوصف (المقربة) يؤكدّ إطعامه ؛ "لأن في كوْنه يتيمًا إغاثة له بالإطعام، وفي كوْنه ذا مقربة صلة للرحم" . [٥]

وقيل: الآية محمولة على المجاز، "فاليتيم هاهنا القلب، وطعامه الوفاء، والمسكين العارف المتحيّر، فطعامه إلطافه، ذا مقربة عند الله، وعند الخلق ذا متربة ".[٦]

---

(١) تفسير الإمام الرازي: (١٧٠/٣١).

(٢) التحرير والتنوير: (٣٥٨/٣٠).

(٣) سنن الترمذيّ : محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تحقيق/ بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، نشر سنة ١٩٩٨م (٤٠/٢)، باب ما جاء في الصدقة على ذي القربى ، برقم (٢٦) .

(٤) صحيح مسلم (٦٩٤/٢) رقم (١٠٠٠) ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ، وصحيح البخاري (١٢١/٢) رقم (١٤٦٦) ، باب الصدقة على اليتامى.

(٥) التحرير والتنوير: (٣٥٩/٣٠) .

(٦) تفسير التُّسْتريّ: أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس التستري، تحقيق / محمد =

وقيل: "يمكن في لفظ "مقربة" أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربَى بمعنى الصحيح، بل من "القرب" الذي هو الخاصرة، فكأن المعنى أنه يطعم مَنْ خاصِرتُه لصقت من شدّة الجوع والضرّ، وهذا أشبه بقوله: "ذا متربة"؛ لأن كل ذلك مبالغة في وصفه بالضرّ ، وليس من المبالغة في الوصف بالضر أن يكون قريب النسب". (١)

ويرى البحث . مع تقديره لهذا الكلام الجيد . أن في ذلك نظرًا، ولا يُسلّم به من أوّل وَهْلة؛ لأن من يتأمل سياق السورة [خاتمةً ومقصدًا ومطلعًا] يجد غير ذلك، ومن يتأمل مناسبة السورة لما قبلها وبعدها يجد غير ذلك، فقبلها سورة "الفجر"، وسورة الفجر تنكر على مَنْ لا يفعل الخيْر مع وجود السعة والإكرام، وهذا قوله : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ...﴾. (٢)

وفي سورة "البلد" دعوة إلى الخيْر والعمل الصالح، والذي منه إكرام اليتيم القريب، (ففي سورة "الفجر" بعدما بيّن . سبحانه . صحّة المفاهيم في العطاء والمنع ، وبيَّن حقيقة فتنة المال إيجابًا وسلبًا، جمعًا وبذلًا، وبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك: من عدم إكرام اليتيم، جاء في قوله ـ تعالى ـ في سورة "البلـــــد": ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾، وبيَّن (سبحانه) أن هذيْن الجانبيْن أهمّ مهمات بذل المال، وأن ذلك من اقتحام العقبة عند الشدّة) . (٣)

=باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢٣ هـ، صـ١٩٥.

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) لمحمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق / محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٨ هـ، (٤٧٨/٩).

(٢) سورة الفجر، الآيات: ١٤-١٧.

(٣) أضواء في إيضاح القرآن بالقرآن (٥٢٦/٨ بتصرّف).

وبعد التأمل في الآية ﴿يتيمًاذامقربة﴾ نجد أنها إشارة إلى وجوب إكرام اليتيم، شريطة تخطى وتجاوز "العقبة" ونوازع النفْس الإنسانية من الأنانية والأثرة وحب الذات وحب المال ؛ ذلك لأن حب المال من العوامل التي تعوق الإنسان وتحول بينه وبين الإكرام، والحضّ على الإطعام ، كما قال . تعالى . في سورة "الفجر": ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ (١)، فلما كان حب المال وجَمْعه طاغيًا على النفْس كانت النفْسُ شحيحة بخيلة مجبولة على الطمع غير العاديّ ، لدرجة أنهم لا يكرمون اليتيم (من قريب أو بعيد). أما في سورة " البلد " فجاءت الآية ﴿يتيماًذامقربة﴾ واتصالها بما قبلها بيانًا على أنه ليس من السهل على الإنسان أن ينزع من نفسه الأنانية وحبّ النفس (وكل ما كان في سورة الفجر من معوقات الإكرام والعمل الصالح)، وأن ذلك محتاج إلى مكابدة النفْس ومشقتها ومعاناتها وجهادها ومغالبتها حتى يقهر المرء هذه القوى المواجهة التي تحول بينه وبين البذل والإنفاق والسخاء والعطاء ، فكان قول الله . سبحانه .:﴿فلااقتحم العقبة﴾، ولاحظ أن الله . تعالى بدأ بعد ذلك بفكّ الرقبة، وفي ذلك إشارة إلى "أن اقتحام العقبة من أجل الوجود الكريم الجدير بالإنسان، وردّ الكرامة الآدمية للإنسانية، وفي كلّ إصلاح لخير البشر والمجتمع، ثم الآيات: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ . يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ . أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ فيها إشارة إلى العدالة الاجتماعية التي تصحح الأوضاع المادية التي أباحت وجود مقتدر ذي مال لُبد، ويتيم جائع ذي مقربة، أو مسكين ذي متربة". (٢)

وهذا كلام جيّد يوصل بعضه إلى بعض في معانٍ آخذة ، وأفكار نافذة مجتمعة متلاحقة ، وكأن سورة (البلد) جاءت امتدادًا لما في سورة

(١) سورة الفجر: الآيات (١٧-٢٠).
(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: (١٨٧/١).

(الفجر)، حيث إن سورة الفجر تنكر على مَنْ لا يعمل الخير رغم وجوده، وسورة البلد تدعو وتكمل المسيرة حيث العمل والجد والتفاني وقهر النفْس الطامعة، فصلاح البشر والمجتمع وتصحيح الأوضاع النفسية والمادية لكي يكون الإنسان قادرًا على البذل والإنفاق لابدّ من وجود وقفة مع تلك النفْس، ومواجهة تصحيح المفاهيم نحو ابتلاء الله واختباره للإنسان في الخير والشرّ والسعة والضيق ، أو كما تسميها سورة الفجر (الإكرام والإهانة)، ولاريب فى أن ذلك يحتاج من الإنسان حُسْن تصرّف وتفكّر وتدبّر فيما أعطاه الله وأسبغ عليه من نعمٍ كثيرةٍ كالإدراك والتمييز والنطق والإبصار، أو كما تسميها سورة البلد (عينين، ولسانًا، وشفتين، ونجديْن)، وأن الإنسان إذا لم يُوّفق فيما ابتلاه الله أصبح لا يكرم يتيمًا وغير ذلك من وجوه الإنفاق في سبيل الله ـ تعالى ـ، وهذه الوجوه التي حثت عليها سورة (البلد) من البر والخير بأنه إن لم يكن من (الذين آمنوا) وهم الذين صبروا وتجاوزوا المحن والعقبات لم يُقبل منه وأصبح من أصحاب المشأمة؛ "لأن الله ـ تعالى ـ جعل قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ قيْدًا في اقتحام العقبة من تلك الأعمال من عتقٍ أو إطعام لليتامى والمساكين؛ لأن عَمل غير المؤمن لا يجعله يقتحم العقبة يوم القيامة ، فلا يفك رقبة ، ولا يطعم يتيمًا ذا مقربة، ولا مسكينًا ذا متربة؛ لإحباط عمله، ولاستيفائه إيّاه في الدنيا، وقوله: " ثم " هنا للترتيب الذِّكْرِي لا الزمني، مما يدل على أن وجود الإيمان مشروط عند القيام بهذه الأعمال". (١)

وللإمام الشوكاني كلام نظِير ذلك لكن من وجهة نظر أخرى، من حيث (لا) ودخولها على الفعل الماضي ﴿فلااقتحم العقبة﴾. ولما كان اقتحام العقبة هذه الأمور حَسُن دخول (لا) على الفعل الماضي، فإنها لا تكاد تقع مرّة واحدة إلّا في مثل هذا الموضع ، والأصل تكرارها مع كل فعل فيكون

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : (٥٣٤/٨) .

المعنى: فلا اقتحم العقبة ولا فكَّ رقبة، ولا أطعم يتيمًا أو مسكينًا ولا آمَن فيقول:

"ذكر . سبحانه . هنا (لا) في ﴿فَلَاٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ مرّة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد "لا" مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر كقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَاصَدَّقَ وَلَاصَلَّىٰ﴾[1]، وإنما أفردوها هنا؛ لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قائمًا مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ، ولا فكّ رقبة ، ولا أطعم يتيمًا أو مسكينًا ولا آمَن إلّا من صبر واقتحم العقبة، كما في قوله . تعالى .: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾[2]". [3]

وقيل: "إن (لا) في: "فلا اقتحم العقبة" هي (لا) بمعني هلّا التي للتحضيض، وقيل: هي بمعناها الحقيقي وهو النفي، وحينئذٍ يكون المعنى: أن هذا الإنسان الذي جعلنا له عينيْن لم يشكرْنا على نعمنا، فلا هو اقتحم العقبة، ولا هو فعل شيْئًا من الأعمال الصالحة ينجيه من عذابنا.

---

(١) سورة القيامة : آية ٣١ .

(٢) سورة فصلت : من آية ٣٥ .

(٣) فتح القدير: للشوكاني : (٥/٥٤١ بتصرف). " والاقتحام: الدخول العسير في مكانٍ أو جماعةٍ كثيرين، يُقال: اقتحم الصفّ، وهو افتعال للدلالة على التكلّف مثل: اكتسب، فشبَّه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدّته على النفْس ومشقته على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل الماضي، وهو استعارة؛ لأنَّ تزاحم الناس إنما يكون في طلب الخير والمنافع.
والمورد العذب كثير الزحام ، وأفاد نفي الاقتحام أنه عدل عن الاهتداء إيثارًا للعاجل على الآجل ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة، وبذلك نجد أن كلًّا من الاقتحام والعقبة استعارة بُني بعضها على بعض ، وهي مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس، والاقتحام ترشيح لاستعارة العقبة لطريق الخير". (المصدر السابق: ٣٠/٣٥٧).

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: "قوله: (فلا اقتحم العقبة) فلم يشكر الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فكّ الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان، بل غمط النعم ـ أي استحقرها ـ وكفر بالمنعِم[1])"[2].

ومما يلحظ هنا أن هذا المعنى شبيه بالمعنى في سورة الفجر في الآيات (١٥، ١٦، ١٧، ١٨)، يعنى فلا هو حمد الله وشكره على نعمه وآلائه في الحاليْنِ : السرّاء والضرّاء ، وإن حمد الله وشكر له آلاءه ونعمه فلا يكرم يتيمًا ولا يحض على طعام مسكين، وفي الحاليْنِ معنى الرجوع إلى أثرة النفْس، وحبّ المال، والطمع .

وبهذا يظهر لنا مدى ملاءمة السياق في سورة "الفجر" للسياق في سورة "البلد"، وأن المعنى هنا رادّ ومرتّب على المعنى هناك ، والعلاقة بينهما علاقة تكامل وتضافر واتصال، مما يدّل على أن الآيات والسور بعضها آخذ بسبب وحُجَز بعضٍ بنسب وصلة، والله أعلم.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر: الكشاف للزمخشريّ : (٤/٧٥٥ ، ٧٥٦).

(٢) نقلًا من: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: د . محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى ، نشر سنة ١٩٩٨م، (١٥/٤٠٤ ، ٤٠٥).

المبحث الخامس

امتنان اللّه ـ تعالى ـ على نبيه ـ ﷺ ـ في يُتمه بنعمة الإيواء

قال . تعالى . : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾. [١]

الدلالات اللغويَّة :

﴿يَجِدْكَ﴾: من وَجد مطلوبه، والشيء يجدُه وجودًا، والمصدر: وَجْدًا، وجِدَة، ووُجْدًا، وَوُجودًا، ووِجْدانًا، وإِجْدانًا، ويُقال: وجدتُ الضّالة وِجْدانًا، مَن وَجَد الضّالة يجدُها ، وأوجده اللهُ مطلوبه أي أظفره به. والوُجدُ والوَجْد والوِجد: اليسار والسعة، وأوجده الله أي أغناه، وفي أسماء الله . ﷻ الواجد، أي الغني الذي لا يفتقر، ويُقال: الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر أي أغناني، وآجدني بعد ضعفٍ أي قوّاني.[٢]

﴿فَآوَىٰ﴾: من أوَى: عاد، يُقال: أويْتُ إليه أي عدتُ، ويُقال: "أويتُه" بالقصر "وآويتُه" بالمدّ على زنة (أفعلته) بمعنى واحدٍ، والإيواء: الضمّ والإحاطة والشمول بالرعاية ، قيل : جاء أعرابي فصيح من بني نُميْر كان استُرْعي إبلًا جُرْبًا فلما أراحها مَلَث الظلام نحّاها عن مأوَى الإبل الصحاح ونادى عَريفَ الحي فقال: ألا أين آوى هذه الإبلَ الموَقّسَة؟ وفي حديث البيْعة أنه ـ ﷺ ـ قال للأنصار: "أبايعكم على أن تؤووني وتنصروني"[٣]: أي تضمونى إليكم وتحوطوني بينكم. [٤]

---

(١) سورة الضحى ، آية (٦) .

(٢) لسان العرب : مادة (وجد) ٤٤٥/٣ ، ٤٤٦ .

(٣) ظ/ دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق د. محمد رواس قلعة جي، و/ عبد البر عباس، (٢٨٢/١) ، برقم (٢١٤)، نشر دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٤) لسان العرب : مادة : آوى (٥١/١٤) .

وآوانا : أي ردّنا إلى مأوًى لنا ولم يجعلنا منتشرين متفرقين، والمأوَى: المنزل أو السكن، والمأوَى: كل مكان يأوى إليه شيءٌ ليلًا أو نهارًا.

وأوَى : من تأوّى الجرحُ أي طاب وسكن وتقارب للبُرء . [١]

وآواك أي رحمك، يُقال: أوِّ لفلان أي ارحمه، ويُقال : آواه أي رقَّ ورثى له، وأشفق عليْه ، وفي الحديث الشريف: "كان النبي ﷺ . يخوِّى في سجوده حتى كنا نأوِي له".[٢] أي كنّا نرثى له ونشفق عليه من شدّة إقلاله بطنه عن الأرض وحدّة ضَبْعَيْه عن جَنبيْه . [٣]

وفي معجم مقاييس اللغة نجد الفعل "أَوَى" دالًّا على أَصْليْن: أحدهما: التجمّع ، والثاني: الإشفاق، قال الخليل: التأوي: التجمّع، يُقال: تأوّت الطير أي انضمَّ بعضها إلى بعض[٤]

المعنى العام :

جاءت هذه الآية مبيّنة فضل الله على نبيه . ﷺ وامتنانه عليه بنعمة "الإيواء" بأن كفله وحفظه وشمله برعايته وكنفه، وهذا قوله: (فآوى) أي آواه الله . ﷻ وآوى به أصحابه والمسلمين من حوله، وآوى له أيضًا حتى أصبح مأوًى لليتامى ورسولًا للمساكين والمحتاجين والمستضعفين، قال الشيخ المراغي: "بعد أن ذكر الله . ﷻ رضاه عن رسوله، ووَعْده له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ويثلج قلبه ، أردف ذلك ببيان أن هذا ليس عجبًا منه . جلّ شأنه .

---

(١) لسان العرب : (٥٢/١٤) .

(٢) رواه الترمذي في باب صفة السجود (٢٣٧/١) ، ويخوِّي في سجوده أي يجنّح . أي باعد مرفقه وعضديْه عن جنْبيْه . في سجوده حتى يُرى وضحُ إبطيْه : صحيح مسلم (٣٥٦/١) باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به . وضَبْعَيْه : مثنى ضَبْع ، وهو وسط العضد ، أو ما تحت الإبط ، أي يظهرهما : صحيح البخاري (٨٧/١) ، باب يُبدى ضَبْعيه ويُجافى فى السجود.

(٣) لسان العرب: ٥٣/١٤، مادة: أوى.

(٤) مقاييس اللغة: ١٥١/١، ١٥٢، مادة: أوى.

فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولًا، فكيف يتركه بعد أن أعدّه لرسالته ؟! ".[١]

مقصد السورة الكريمة وموضوعاتها :

ذكر الكثير من العلماء والمفسرين مقاصد عديدة لسورة " الضحى " تكاد جميعها تصب في قالبٍ واحدٍ على النحو التالي:

أولًا : أن موضوع سورة "الضحى" الحديث عن شخصية النبي ـ ﷺ ـ وقد تضمنت عدة مقاصد منها: ابتداؤه بالقسم الإلهي العظيم على أن الله ـ ﷻ ـ ما قلا رسوله . ﷺ ـ ولا أبغضه ، ولا هَجَره، ولا تَرَكه، وإنما هو محل العناية الربّانية، ومنها: أن الله بشّره بالعطاء الجمّ في الآخرة، والشفاعة العظمى، ومنها: تعداد نعم الله على نبيه منذ صغره، ومنها: إيصاؤه بفضائل ثلاث: العطف على اليتيم، وصلة المسكين، وشكر النعمة العظمى، وهي النبوة، وغيرها من النعم. [٢]

ثانيًا : ذكر البقاعي "أن مقصود السورة: الدلالة على آخر الليل بأنَّ أتقى الأتقياء الذي هو الأتقى على الإطلاق في عيْن الرضا دائمًا، لا ينفكُّ عنه في دنيا ولا في آخرة؛ لما تحلّى به من صفات الكمال، التي هي الإيصال للمقصود، بما لها من النور المعنويّ كالضحى، بما له من النور الحسيّ، الذي هو أشرف ما في النهار، وقد علم بهذا أن اسمها دال على مقصودها".[٣]

---

(١) تفسير المراغي : تأليف/ أحمد بن مصطفى المراغي(١٨٤/٣٠) ، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط (١)، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

(٢) التفسير المنير : ٢٨٠/٣٠ .

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: لأبي بكر البقاعي، دار النشر، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط (١) ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ ، (٢٠٢/٣ ، ٢٠٣) .

ثالثًا: قال آخرون : إن المراد من سورة "الضحى": "بيان للرسول ـ ﷺ ـ ما للشرف والمنقَبَة، وذكر أنواع الكرامة له، والمنّة، وصيانة الفقر واليُتم من بين الحرمان والمذلّة، والأمر بشكر النعمة ".(١)

ومن هذه المقاصد يتبيَّن لنا المقصود الأعظم من السورة وهو بثّ الطمأنينة، ونشر السكينة في قلب النبي ـ ﷺ ـ، وشفاء لصدره الشريف، ونفي التهمة التي نسبها إليه المشركون، وهي تهمة انقطاع الوحي عنه ـ ﷺ ـ، وترى هذا المعنى واضحًا وهذا المقصد شاخصًا في قول الحق ـ جل شأنه ـ : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. (٢)

ثم يأتي قوله ـ بعد ذلك ـ : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ دالًّا على هذا المقصد ومؤكّدًا له، وكأنَّ في هذه الجملة القرآنية نفْيًا لما زعمه المبطلون من أن الله ـ ﷻ ـ ودّع محمدًا وقلاه، فجاءت الآية ردًّا عليهم، وفي الوقت نفسه امتدادًا لقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾، بدليل حديث: "أن امرأة قالت: يا رسول الله: ما أرى صاحبك إلّا ودّعك، فنزلت: "ما ودّعك ربك وما قلى". (٣) وحديث: "أبطأ جبريل على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد، فأنزل الله ـ ﷻ ـ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾. (٤)

---

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز : (٥٢٥/١) ، للفيروزآبادي ، ت/ محمد على النجار ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مطبعة الأهرام التجارية، قليوب، مصر، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

(٢) سورة الضحى: آية ٣.

(٣) أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن الواحدي النيْسابوري، صـ٤٥٧ ، ت / عصام عبدالمحسن الحميْدان، نشر دار الإصلاح، الدمام ، ط (٢) ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٤٩٥١ ، ١٧٢/٦، باب قوله: "ما ودّعك ربك وما قلى".

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ـ ﷺ ـ من أذى المشركين والمنافقين، رقم ١٧٩٧، (١٤٢١/٣) .

ويقول الحافظ بن حجر: "والحقّ أن الفترة المذكورة في سبب نزول "والضحى" غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أيّامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتيْن أو ثلاثًا، فاختلطتا على بعض الرواة، وتحرير الأمر في ذلك ما بيَّنتُه".(١)

ومن ثَمَّ نفهم أن ما زعمه المشركون . هنا . كان باطلًا ولم يثبت؛ لعدم معرفتهم حينها بأمر الوحي، وأن هذه الفترة المذكورة " ليلتيْن أو ثلاثًا" هي الصحيحة والثابتة في حديث بدء الوحي في الصحيحيْن.(٢)

إذن: جملة المقصد نراها مودَعةً في قوله : ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى﴾ وهي جملة جواب القسم في قوله : " وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى" ، وهذا الجواب تَصَوُّر لنفي وردّ ما زعمه المشركون من أن الوحي قد انقطع عن سيدنا محمد . ﷺ، ومعلوم أن قسَم الله لا يكون إلا لأمر جلل وحدث خطير وأمْرٍ مهمّ ذى بال، وما أحد أكرم على الله . تعالى . من سيدنا محمد . ﷺ . ليمتنَّ عليه بعظيم نعمه وآلائه، وجلال فضله وإحْسانه .

فكأن القسم الذي صدرت به السورة بمثابة النمط التركيبيّ الأساسي الذي بُني عليه قوله: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى﴾، وما عداها فروع لها وأجزاء لا تتجزّأ منها، "وفي سورة الضحى تجد أن أسلوب القسم والتقسيم هو الأسلوب المهيْمن على السورة ، والذي بُنيت عليه الأساليب الأخرى ، وعليه مدار تصوير المعنى في كل أسلوب واحد، فأسلوب القسم والتقسيم هو النمط التركيبي الرئيسي مما بُنيت عليه الأنماط الأخرى".(٣)

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ بن حَجَر العسقلاني (٨/٧١٠) . طبعة المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ .

(٢) صحيح البخاري : باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ، رقم (٤٩٨٣) ، (١٨٢/٦) ، وصحيح مسلم : باب بدء الوحي إلى رسول الله . ﷺ ، رقم (١٧٩٧) ، (١٤٢٢/٣) .

(٣) العزف على أنوار الذكر : د . محمود توفيق ، صـ (١٧٢ ، ١٧٣) .

علاقة الآية بمضمون السورة :

بعد قراءة السورة الكريمة . قراءة تأمل وتدبّر . من خلال كتب التفاسير وجدت مناسبة شديدة ووشائج قوية بين الآية وبين ما قبلها وبعدها من وجوهٍ :

أولاً : الأسلوب الإنشائي، حيث بدأ مطلع السورة بالقسم ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾، ولهذا القسم غرضه البلاغي من ناحيتيْنِ: من ناحية إنعام الله وإحسانه على نبيه محمد . ﷺ. الدال على عظمة وقدرة الله وكمال وحدانيته، وفي ذلك إشارة إلى أن الضحى "من تشبيه وجه محمد . ﷺ. بالضحى، وشعره بالليل" (١)، مما يدلّ على أن حياة النبي . ﷺ . ومولده نور وضياء للكوْن كله، كالشمس تشرق ببهجتها فتنير بضوئها، وتبث دِفئها على كل شيء حولها، كما يكشف ضوء النهار ستر الليل بعد ظلمته .

ومن ناحية أخرى: يُراد بالقسم التعظيم؛ لأن (الضحى والليل) فيهما إشعار بالأعمال المعظمة في الدين، فالضحى وقت صلاته، ووقت السعي على المعاش المأمور به لاستمرار حركة الحياة ؛ حفاظًا على وظائف العبودية، والليل هو وقت صلاته أيضًا التي هي أفضل صلاة بعد المكتوبة . (٢)

ثم تجد الأسلوب الإنشائي ـ أيضًا ـ بعد ذلك في قوله : ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وفي ذلك إشارة إلى أن اليتيم من الآيات الدالة على عظمة النبي ـ ﷺ. كما دلّ عليها "الضحى والليل"

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان " تفسير النيسابوريّ " : (٥١٥/٦) ، تحقيق / زكريا عميرات، دار الكتب العلمية . بيروت . ط أولى ، ١٤١٦هـ .

(٢) ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ أن النبي . ﷺ. قال: "أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرّم". رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، رقم ١١٦٣ ، (٨٢١/٢).

آنفًا، وفي كلٍّ بيان منزلته . ﷺ ـ الرفيعة وقدْره السَّاميّ عند الله . عزّ وجلَّ . فجاء كل من الاستفهام التقريري "ألم يجدك"، والنهي "فلا تقهر" دالًّا على المبالغة والتكثير في المدح والتعظيم لدى المخاطب وهو سيدنا محمد ـ ﷺ ـ مبالغة في الوصف المذكور، سواء كان في الوصف بالضحى أم بالليل أم باليُتْم، أم بعدم قهره اليتيم، ليدلّل بذلك على تمييز العناية به، وكمال القدرة الإلهية على تكوين نفْسه الزكيَّة على الكمال التربويّ ، والتعهّد بحفظ أحواله الخُلُقية . ﷺ .

ثانيًا : تجد العلاقة واضحة بين (اليتيم) وبين (الضحى) وبين (الليل إذا سجى) وبين (آوى) ، فكأن اليتيم بمثابة الليل إذا سجى ؛ لأن اليُتم انكسار وقلق وعدم سكينة، ثم يأتي الليل بسَجْوه ليغطّي هذه الظلمة بعد "الضحى" الذي هو النور والضياء والبهجة وكشف المستور من الغيوم ، ثم يأتي "الإيواء" مقابل هذا الضحى والنور، والمراد بيان منزلته . ﷺ ورفيع درجته، "وذلك لبلوغه من الشرف ما لا يبلغه أحد من الخَلْق". (١)

ثالثًا: تأتي آية ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ مؤكِّدة للمعنى في آية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، وكلاهما دالّ على عدم ترك الله . تعالى . نبيّه . ﷺ فلم يودّعه ولم يقله ، كما لم يتركه يتيمًا، بل آواه وآوَى به وأيّده وأيّد به .

رابعًا: تجد التناسب الشديد بعد ذلك بين ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ وبين ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾، وكلها تصب في معنى واحدٍ وغرضٍ واحدٍ هو [التعديد لما أفاض الله به على نبيّه من أصول النعم العظمى، وهي

(١) نظم الدرر : (١٠١/٢٢) .

"الإيواء، والهداية، والإغناء "والتذكير لما حفّه الله به من فيْض ألطافه وبما أفاض عليه من مدد أوْصافه].[١]

فاليُتم ظلمة، والإيواء نور وضياء وسكينة وهداية، واليُتم انكسار وفاقة وعوز، والإيواء ضمّ ورعاية واستغناء وحنان، وكذلك الضلال ظلمة، والهدى نور؛ لذا بدأ الحق . سبحانه . بالظُلمة ثم النور في ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ ليتساوق هذا الترتيب ويتوافق مع آية ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾، فللأولى هي الظلمة، والآخرة هي النور ومستقر الرحمة.

خامسًا: ومن وجوه التناسب كذلك بين ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ وبين مطلع السورة : إثبات صفة الوجود لله . تعالى . الدالّة على عظمته ووحدانيته سواء بصفة (الإيجاد) وهو الخلق أم بصفة العِلْم ، فالضحى أصل من أصول النعم التي خلقها الله . تعالى . لمنافع العباد في كلّ الأماكن والبلاد، وكذا " الليل إذا سجى " [والسجو جزء من الليل، يقال : سجى الليل : إذ سكن بالناس ودام، وليلة ساجية: ساكنة البرد والريح] .[٢]

فالمادة تدور حول السكون والتغطية، أليس ذلك دالًّا على عظمة وقدرة ووجود الله وإيجاده للشيء أن يكون فيكون؟ بلى، فسبحانه الذي خلق ذلك وأكثر قدر على أن يخلق سيدنا محمدًا . صلى الله عليه وسلم . يتيماً بلا مأوى فآواه ورعاه بحفظه وكنفه الإلهي، ولا يمنع من ذلك أن يكون خلق النبي يتيمًا خَلْقَ علم وإيجاد ، يعنى خلقه الله يتيمًا بعد وجود علمه بيُتمَه، وذلك لحكمة اقتضتها مشيئة الله، وهي أن يكون في عناية الله . وحده دون سواه، فلم يتركه لحظة؛ حتى لا يكون لأحدٍ

(١) سورة الضحى . دراسة موضوعية: د/ أحمد عبدالسلام أبو الفضل، ط (١) ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م، صـ٤٠.

(٢) لسان العرب: (سجَى).

عليه فضل أو محاباة في تربيته، فالله ـ تعالى ـ هو الذي ربّاه وتكفّل به فأحسن تربيته وتأديبه، وكيف لا ؟ وهو . سبحانه . القائل: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ (١)، والقائل: ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ ﴾. (٢)

سادسًا: ثم ترى علاقة وطيدة بين الآيات الثلاث: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ ﴾ وبين قوله في ختام السورة : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١ ﴾، فكل ما سبق من الإيواء والهداية والإغناء دالّ على تعدّد النعم التي وهبها الله لنبيّه، هذه النعم التي في جملتها عفت ومحتْ ظلمةَ اليُتم من قلبه . ﷺ .، "فلم يظهر عليه يُتم البتة فأذكره الله . تعالى . هذه النعمة". (٣) ولا ريب في أن السورة كلّها في مجملها جاءت معدّدة لنعم كثيرة جاءت واسطة العقد بين خواتيم سورة الليل بالنعمة ، وأول سورة الشرح بالنعمة أيضًا، ففي خواتيم الليل يقول ـ تعالى ـ : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾ (٤) ليربط الله بين هذه الآيات وبين مطلع سورة الضحى فيكون النمط الرئيس والتركيب الأساس للنعمة منصبًّا في قوله : ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ ﴾، وهذه النعم هي التي أعطاها الله لنبيّه واختصه بها دون سائر عباده، والتي من جملتها نعمة الإيواء في قوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ

(١) سورة الطور : من آية ٤٨ .
(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٢١٨ ، ٢١٩ .
(٣) تفسير الرازيّ : ١٩٦/٣١ .
(٤) سورة الليل : الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، ثم ترى هذا الاختصاص والإفراد بالنعمة في مطلع سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ إلى آخر السورة.

فكان أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ بالتحدث بنعمة الله عليه من باب الشكر على النعمة، ومن باب الامتنان والإكرام، والحث على تذكّرها وعدم الإغفال عنها، ولا شكّ في أن كل نعمة من الله تحتاج إلى إيجادٍ في القلب، وغرس شكرٍ في النفْس، ثم حث هذه النفس على التفكّر والتدبّر في آلاء الله على الدوام، والثبات على المطلوب، خاصة في أوقات الشدّة والظلام والخروج منها إلى النور والسعة والفرج ، كما أخرج الله نبيّه ـ ﷺ ـ من يُتمٍ إلى إيواء، ومن ضلال إلى هداية، ومن عيلة إلى إغناء، وهذا قول الله ـ تعالى ـ في سورة الشرح إثر تعدّد النعمة وقبولها وشكرها: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

سابعًا : ووجه آخر يربط بين " اليُتم " هنا وبين قوله آخر السورة : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾: حيث إن الأصل في اليتيم مراعاته وإكرامه ، والحث على الإنفاق عليه والبذل له ، وقوله : "فحدّث" أي عن النعمة ، وهذا يستوجب الحديث بالقول أو الفعل ، فهي كناية عن الشكر قولًا، وكناية عن البذل والعطاء فعلًا، ولا أدلّ في هذا المقام على ذلك مما نحن بصدده ، حيث إن اليتيم هو الضعيف ، فكم هو محتاج إلى نعمة العطف والشفقة والإحسان، وكل ذلك من وجوه البرّ والإفضال عليه والإنعام، وكأن الإحسان والشفقة على اليتيم نعمة يؤثرها الله على من يشاء من عباده، " فكم من بخيل يكتم ماله ولا يتحدث عنه، ولا يقوم فيه ببذلٍ أو عطاء أو شكرٍ لله الذي أنعم عليه وأفاض، بخلاف الكرماء فتراهم يظهرون مالهم بالبذل ما آتاهم الله من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه، فلهذا صحَّ أن

(١) سورة الشرح: الآيتان (٥،٦).

يُجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء واليتامى وإعانة المحتاجين ... فليْس القصْد هو مجرّد الثروة ". (١)

وزاد القاسميّ قائلًا: "فليس القصد هو مجرد الثروة ، فإن هذا من الفجيعة التي يتنزّه عنها النبي . ﷺ ـ ولم يُعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقودٍ وعروض". (٢)

التحليل البلاغي :

قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾: استفهام إنشائي غرضه التقرير، وهو حمل المخاطَب على الإقرار بذلك ؛ لأن النبي . ﷺ ـ كان يعلم ذلك ، وقد أقرّه فعلًا بدليلِ حديثِ ابن عباس . رضي الله عنهما ـ أن رسول الله . ﷺ ـ قال : " لقد سألت ربي مسألة وددتُ أني لم أكن سألتهُ، قلت: ياربّ إنه قد كانت الأنبياء قبلي منهم من سخّرت له الريح، ومنهم من كان يحيِ الموتى، ومنهم قال: فقال: "ألم أجدك يتيمًا فآويتُك؟" قال: قلت: بلى يا رب ..."(٣) فدَلّ هذا الاستفهام على أن غرضه التذكير بنعم الله على سيدنا محمد . ﷺ ـ ودوام التثبت على ذلك ما دام حيّا.

وكأن في هذا الاستفهام نفيًا وتقريرًا ، نفيًا لما زعمه المشركون من أن الله . سبحانه . ودّع محمدًا وقلاه ، فجاءت الآية ردًّا عليهم، فقال: ﴿مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى﴾، فجاء معنى النفي في (ألم يجدك) امتداداً للنفي في "ما ودّعك"، "وإنما نفى ذلك؛ لأنه الواقع في كلام المشركين الذي نزلت له الآية، أو أن المبالغة تعود على النفي فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة".(٤)

---

(١) تفسير جزء عمَّ : للشيخ الإمام محمد عبده ، صـ١١٧ ، طبعة دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥ م .

(٢) تفسير القاسمي : ٤٩٣/١٩ .

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٤٥٥/١١ ، برقم ١٢٢٨٩ ، ت / حمدي عبدالمجيد السلفي ، دار النشر، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ط٢ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

(٤) روح المعاني : ٤٧٤/١٥ .

فالهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفي على أبلغ وجه، فإنكار النفي إثبات، كأنه قال: قد وجدك يتيمًا.

وذكر الشيخ ابن عاشور أن الاستفهام التقريريّ هنا دلَّ على "امتنان الله . تعالى . على نبيه أن حفظه من حال اليُتم مما ينال اليتامى".(١)، والمقصود من هذا : " إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقَّق الوقوع ... ويحصل مع هذا المقصود امتنان على النبي - ﷺ - وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله . تعالى . إياه". (٢)

كما تصدرت الآية بالهمزة التي هي لإنكار النفي الذي هو محض المعنى "لتنبّه السامع حتى يرجع إلى نفسه". (٣)

أي أن الذهن بهذا الإيقاظ وهذا الحضور الواعي "يلتَفت إلى السياق فيسْتوعبه بخفاياه ودقائق همسه وكل حواشيه فيلتقط المراد ....، والاستفهام يهيئ النفْس لتتلقى من السياق ما تجيش به من خواطر ومشاعر وصور هي التي جاشت في نفْس متلقيه ".(٤)

وقيل: إن الغرض من الاستفهام هنا أحد أمريْن (التذكير بنعم الله، أو أن يقتدي به غيره فيذكر ربه إذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب).(٥)

وحذف الفاعل في (ألم يجدك) وهو "رب" في السورة كلها ؛ لدلالة ما قبله عليه، فكل آيات السورة مرتبطة بكلمة "الرب" وجاءت لفظة الإيجاد هنا مناسبة للفظة يتيمًا تمام التناسب؛ لأن اليتيم يحتاج إلى الرعاية والتوجيه والإصلاح والتربية والجبْر والرأفة فناسبها لفظ الرب (ذِكْرًا أو تقديرًا) .

(١) التحرير والتنوير : ٣٥٥/٢ .
(٢) السابق : ٣٩٩/٣٠ .
(٣) دلائل الإعجاز : صـ١٢٠ .
(٤) دلالات التراكيب : د . أبو موسى ، صـ٢٥٩ .
(٥) التفسير المنير : ٢٩٠/٣٠ .

"واختيار كلمة" رب "دون" الله "؛ لأن لفظ الجلالة (الله) كلمة عامّة للناس جميعًا، أما كلمة "الرب" فلها خصوصية، وهي تحمل الطمأنينة للرسول الكريم من ربه الذي يرعاه ، ولا يمكن أن يودّعه أو يتركه أبدًا". (١)

والخطاب في "يجدك" للنبي . ﷺ ، وهذه الكاف مشعرة بدوام اللطف والرعاية التامة على مقتضى مقام الربوبية والخطاب، ففي الإيجاد عطف وأُنس وراحة، وفي الإضافة تشريف وعناية.

والوجود هنا بمعنى العلْم، والمنصوبان مفعولَا وجَد، وقيل: بمعنى: ألفى وصادف الذي يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ هو ضمير المخاطب، و"يتيمًا" حال من مفعوله.(٢)

وقيل: بمعنى العلم فقط، أي عَلِمَك يتيمًا فآوى؛ "وذلك لأن المصادفة لا تصحّ في حقه . تعالى .؛ لأنها ملاقاة ما لم يكن في علمه . سبحانه . وتقديره . جلَّ شأنه . ، فلابدّ من التجوّز بها عن تعلّق علمه . ﷻ بذلك".(٣)

وقيل: "استئناف مسوق مساق الدليل على تحقق الوعد، أي هو وعد جارٍ على سَنَن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه في الشدائد باطّراد، بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف ؛ لأن شأن الصدف ألا تتكرر، فقد عُلم أنَّ اطّراد ذلك مراد الله . تعالى . ".(٤) وما نُسب إلى الله . تعالى ـ من الوجود فبمعنى العلم المجرّد؛ إذ كان الله ـ تعالى ـ منزَّهًا عن

(١) لمسات بيانية نصوص من التنزيل : (٢٤٤/١) د . فاضل صالح السّامرائي ، دار عمان، عمان، ط٥، ٢٠٠٩م .
(٢) تفسير أبي السعود: (٢٦٩/٥) .
(٣) روح المعاني: (٤٨٢/١٥) .
(٤) التحرير والتنوير: (٢٩٩/٣٠).

الوصف بالجوارح والآلات نحو قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾. (١)

واختصاص الفعل "وجد" هنا؛ لأنها من أفعال القلوب ، والإيجاد هنا فيه رقَّة ولين، لا سيّما أنه منه ـ تعالى ـ في موقف دلّ على التوتر والضعف والانكسار مع حرف (الجيم) الشجرية، وهي من حروف القلقلة التي تضم في طياتها كل معاني اليتيم، فتجد أن تلك اللفظة جاءت تصوّر بحروفها المراد بدقّة فائقة، ومما يلحظ أن استعمال هذا الحرف مع الفعل نفسه (وجد) كائن في آيات ثلاث: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾، "ويبدو أن استعمال الفعل "وجد" بهذه الأصوات قد جعل الجوّ المعنويّ النفسيّ يسيْطر على الموقف ، فتهيأت للرسول الطمأنينة الوجدانية لتلقي الآيات الكريمة". (٢)

كما أن لفظة "وجد" تشعر بالفرحة المفاجئة بانفجارها الشديد المفاجئ، وترسم صورته . ﷺ كيف وجده . سبحانه . فاختصَّه، فضلًا عن أنّ الوجود هنا يعنى العلْم . (٣)

وكذلك [الكاف] حرف دال على السكون، مما يشير إلى أنها مشعرة بالأنس والراحة، والهدوء النفسيّ، وفي ذلك دلالة على سكون اليتيم وجبر خاطره، " والسورة كلها لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ودّ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتتسم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين". (٤)

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٠٢)، ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ ت/أ. عبدالحليم الطحاوي (١٦٥/٥) .
(٢) التفسير البياني : (٥١/١) .
(٣) الكشاف : (١٢٠٩) .
(٤) فى ظلال القرآن : (١٨٤/٣٠) .

ووجد: من الوجود الذي هو في أصل اللغة مصدر وجدت الشيء أجده وجودًا، ومنه هذه الآية " ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، فالموجود هو الذي يجده الواجد كنسبة المعلوم إلى العلم والمذكور إلى الذكر، وهذا بخلاف الإيجاد الذي هو الخلق، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[1]، أي أوجد الخلائق من العدم، ولم يقل هنا : جعل أو خلق؛ لأن في اللفظتيْن معنى الإيجاد والخلق والتصبير بخلاف "وجد" ففيها جعل الشيء موجودًا، وهو تعدية وَجَده وأَوْجَده ، جعل له جدة وغنى.[2]

وفي كلمة "يجدك" استعارة تمثيلية؛ لأن الوجود معناه ملاقاة الشيء حقيقة، لكنّ الله ـ تعالى ـ استعمل لفظ الوجود هنا وأراد العلْم، لكن لا يخرج هذا عن كونه داخلًا في باب الحقيقة ، خصوصاً وأن المتحدث هو الله ـ تعالى ـ الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء "والكلام تمثيل لحالة تيسير المنافع للذي تعسَّرت عليه بحالة مَنْ وجَد شخصًا في شدةٍ يتطلّع إلى مَنْ يعينُه أو يغيثه".[3]

وهذا يعني أن استخدام اللفظ في كلام يُراد به مجاز أو استعارة لا يبعده عن كونه داخلًا فى باب الحقيقة، وأنه ثمة علاقة قوية تربط بين المعنييْن (الحقيقيّ والمجازيّ).

وبما أن الفعل "وجد" هنا جاز فيه الاستعمال على المعنى الحقيقي والمجاز أو التمثيل ـ كما قال صاحب التحرير والتنوير ـ فإنه من الدلالات الاستتباعية التي تجامع كلًّا من الحقيقة والمجاز، والعلاقة بينهما علاقة إيضاح ، والمعنى فيهما واسطة في المجاز والحقيقة؛ إذ المراد تولّد معنى من

(١) سورة الملك : من آية (٢) .
(٢) الألفاظ والمصطلحات المتعلّقة بتوحيد الربوبية، تأليف/ آمال عبدالعزيز العمرو، ط (١)، ١٤٢٧ هـ، المملكة العربية السعودية . الرياض، (صـ١٨٨، ١٨٩) .
(٣) التحرير والتنوير: (٣٠/٣٩٩) .

المقام والسياق عن اللفظ لا به، " فالمعنى في الدلالات الاستتباعية من عرض اللفظ والمعنى الحقيقيّ، وإن كان مقصودًا معه، إلّا أن قصده ليس بالذات، وإنما بغرض التوسّل به واستتباعه المعنى المراد".(١)

ويلحظ أن الفعل "يجدك" جاء بالمضارع الدال على الاستمرار والتجدّد مع أنه سبق في علم الله . تعالى . وجود يُتم الحبيب النبي . ﷺ والمعنى بعد الاستفهام التقريري: قد وَجَدك وعَلِمَك، لكن جاء الماضي في صورة المضارع هنا . والله أعلم . ليتناسب مع معنى الآية؛ إذ النبي . ﷺ تعدّدتْ مراحل يُتمه ، " فتارة فقَد أباه وهو في بطن أمّه، ثم فقَد أمّه وهو ابن ست سنين، وأخرى جدّه وهو ابن ثماني سنين، فضلًا عن فقدانه لاحقًا عمّه أبا طالب الذي ناصره على أعدائه".(٢)

ومن هذا التعدّد في يُتمه ـ ﷺ نفهم دلالة أخرى من المضارع، وهي دوام احتفاء الله . تعالى . بنبيّه، واستمرار إدخال السرور إلى قلبه بالتمسك به وعدم التخلّى عنه أبدًا قبل يُتمه وبعده؛ لتبدو بهذا دلالة إطلاق النفي وعدم تقييده، ومن ثمَّ جاء المضارع تعبيرًا عن حكاية حالٍ ماضية؛ "لإيهام المشاهد والمواقف بإحضار صورة الشيء في ذهن السامع بصيغة الحاضر".(٣)

ويوضح هذا المعنى ما ذُكر من أن النبي ـ ﷺ ـ "تقلّبت به صنائع الأيام، وأحداث السنين دون أن تمسه بشائبة تجرح سيرته، التي بقيت مُصَانة تحت ظلال الإيواء الإلهي، الذي خوطب به ـ ﷺ ـ في قابل الأيام، والحاصل في قول الله . تعالى .: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾".(٤)

---

(١) أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية ، دراسة ونقد ، د . محمود موسى حمدان، مطبعة دار الكتب الجامعية، صـ١١٦، دون تاريخ .

(٢) تفسير الرازي، (٣٢/٢١٤).

(٣) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ، ت / أحمد الهاشمي ، ضبط وتدقيق / يوسف الصميلي، نشر المكتبة العصرية ، بيروت ، صـ٢١٤ ، دون تاريخ.

(٤) أطراف من سيرة النبي ـ ﷺ ، بحث نشر في مجلة الأزهر الشريف (٣/٥٠٦)، د/=

وذكر ابن عاشور أن المعنى في "ألم يجدك" : وجدَك، أي : أليس وجدك يتيمًا فآوَى ؟ فالأصل فيه الماضي، وقد جاء بالمضارع هنا باعتبار قلب زمانه إلى المضي؛ لدخول حرف "لم" قياسًا على قوله: "ألم يجعل كيدهم في تضليل". [١] فكأنه قيل: أليس جعل كيْدهم في تضليل؟[٢]

وقوله : (يَتِيمًا) هنا كناية عن الانفراد في الخصوصية في كل شيء، أي ألم يجدك واحدًا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك. [٣]

وعلّق عليه الشيخ الغماريّ بأنه يجوز أن يكون من باب الإشارة والتلميح لا التصريح . [٤]

وهذا يعني أن لكلمة اليتيم أكثر من معنًى، ولا ينحصر اللفظ في اليُتم الذي هو فقدان الأب والأم ، بل المعنى أوسع من ذلك؛ لأن حكمة الله اقتضت أن يكون النبي ﷺ مخلوقًا يتيمًا فرْدًا في أمورٍ كثيرة والتي منها يُتم الوالديْن، قال ابن عجيبة في تفسيره : " ألم يجدك يتيمًا فرْدًا من العلائق، مجرّدًا مما سوى الله، فآواك إليه، وهي طريقة كل متوجه لا يأويه الحق إليه حتى يكون يتيمًا من الهوى، بل بقلبٍ مفردٍ، فيه توحيد مجرّد". [٥]

=السيد محمد الديب ، مطبعة دار الجمهورية للصحافة ، السنة (٩٢) ، إصدار مجمع البحوث الإسلامية، ربيع الأول ١٤٤٠هـ / نوفمبر ٢٠١٨م .

(١) سورة الفيل ، آية (٢) .

(٢) التحرير والتنوير ، (٣٠ / ٥٤٩) .

(٣) فتح القدير ، للشوكانيّ (٥/٤٥٥ . ٤٥٦) .

(٤) بدع التفاسير ، لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماريّ ، صـ١٤٧ ، طبعة مكتبة القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م .

(٥) تفسير ابن عجيبة " البحر المديد في تفسير القرآن المجيد " ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة ، تحقيق / أحمد عبدالله القرشيّ ، ط . د / حسن عباس زكي، القاهرة ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م ، (٣٢٠/٧) .

كما أن مجيئ لفظ " يتيمًا " منكّرًا غرضه التعظيم والتفخيم في جانب النبي . ﷺ ، وهذه العظمة وهذه الفخامة لا ريْب أنها من عظمة وفخامة الله . جل وعلَا . الذي خلق اليُتم ثم جعل له إيواءً ، هذا الإيواء هو التكريم للنبي الأمين، ومن هنا فإن كلمة " فآوى" جاءت دليلًا على عظم التنكير في "يتيمًا"، قال الرازي: "وفيه تكريم لليتيم بالمشاركة له في الاسم ، وليعرف قدْر الأيتام، ولئلّا يكون له . ﷺ اعتماد طول حياته إلا على الملك العلام".(١)

وفي اختيار لفظ "يتيمًا" هنا بدلًا من أن يُقال : وحيدًا أو منفردًا؛ لأن في لفظ "يتيمًا" أوسعية وشمولًا أكثر، وكأنه خُلق ـ ﷺ ـ يتيماً منفردًا في كل شيء، وهذا إشارة إلى الإعجاز والكمال في اللفظ الدال على شمول وعموم رحمة الله وعطفه دون سواه على نبيّه ومُجْتباه، ولهذا قال البوصيري (رحمه الله) :

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليُتم(٢)

كما أن في اختيار كلمة " يتيمًا " هنا دلالة على " أن اليُتم والفقر نقص في حقّ الناس . عادة .

فلما صار محمد . ﷺ نبيًّا ورسولًا وأكرم الخلْق مع هذيْن الوصفيْن كان ذلك قلْبًا للعادة، فكان من جنس المعجزات"(٣)، فيُتم النبي . ﷺ إذَنْ معجزة دالّة على كمال رعاية الله وعنايته بنبيّه وتمام تربيته، و أن ذلك خير له من تربية الأبويْن.

ومن ثَمَّ نفهم أن الحكمة من خَلْقه . ﷺ يتيمًا هي ألَّا يكون لأحدٍ عليه فضل في تربيته والعناية به، لذا قال . سبحانه . : "فآوَى" دون ذكر المفعول؛

---

(١) تفسير الرازي ، (٢٠٥/١١) .

(٢) البُردة بُردة المديح ، للإمام البوصيري ، البيت رقم (١٤٠) ، صـ١٢٣ ، ضبط وتعليق / عبدالرحمن حسن محمود ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، طبعة (٢) ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٣م .

(٣) التفسير المنير ، (٢٨٩/٣٠) .

للإطلاق والاتساع في المعنى، مما يدلّ على أن الله . تعالى . هو الذي ربّاه وأدّبه كامل الأدب وتمام التربية فلم يحتج إلى مَنْ سوى الله أبدًا، "ولمَّا قيل للإمام جعفر بن محمد الصادق: لم أُوتم النبي . ﷺ . من أبويْه ؟ فقال: لئلا يكون لمخلوقٍ عليه حقّ". (١)

وقوله: (فَـَٔاوَىٰ) : الفاء للتعقيب؛ لإضافة عموم الإيواء والرعاية، مما يجعل الرضا حاصلًا عنه(٢)، وقيل: الفاء للعطف مثل العطف في "وما قلى"، ومعناه أن كلمة "آوى" معطوفة على قوله: "ألم يجدك" أي: وجدك وآواك، والمراد من العطف في الموضعيْن إبطال جميع ما زعمه المشركون، قال البغويّ: "أي ما تركك منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبّك".(٣) وقيل: إن العطف هنا أثبت صلة قوية ورابطًا وثيقًا بين الفعل (آوَى) بالإثبات، وبين (ما ودّعك) بالنفي من حيث المعنى، أي "ما ودّعك ربك بقطع فيض النبوّة والرسالة عن ظاهرك، وما قلى بقطع فيْض الولاية عن قلبك "(٤)، والمراد بالولاية هنا هو الإيواء الذي حفظ به نبيه ـ ﷺ ـ من كيْد الكائدين ومكر الماكرين.

والفعل (آوَى) من الإيواء، مصدر أوى إلى البيت، أي رجع إليه وعاد، فالإيواء: الإرجاع إلى المسكن، فهمزته الأولى همزة التعدية، أي: جعله آويًا، ويُقال: أويْت الرجل وآويته بالقصر والمدّ إذا ضممته إليك وأنزلته بك.(٥)

(١) تفسير القرطبي ، (٩٦/٢) .
(٢) التحرير والتنوير ، (٣٩٨/٣٠) .
(٣) تفسير البغويّ " معالم التنزيل " ، (٤٨٩/٤) ، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغويّ ، تحقيق / خالد عبدالرحمن العك ، ومروان سوار ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط (٣) ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
(٤) تفسير ابن عجيبة، (٤٧١/٦) .
(٥) لسان العرب، مادة (أوى) .

وهذا هو ظاهر المعنى للكلمة، فيكون المراد : جعل له مأوًى يضمّه إلى مَنْ يرعاه، وقيل: الكلام على المجاز في قراءة (أوَى) بدون مدّ في الهمزة ، أي: رحمه[١]، وجوّز الأصفهانيّ ذلك على أساس أنه وارد في اللغة [من أوَى إليه أوَيَة وأيَّةً ، ومأويَة ومأواة].[٢]

ومن هنا فإنه يصح أن يكون في كلمة (أوَى) في الآية مجاز ، أو استعارة تصريحية أُريد منها الكفالة والرعاية ، بناءً على ما أطلقته اللغة في أن (أوى . وآوَى) بمعنًى واحدٍ وهو الضمّ، ثم بناءً على كلام الشيخ ابن عطية في المعنى وهو الرحمة ، وفي كلٍّ من الإيواء والكفالة والضم معنى الرحمة، يقول ابن عاشور: "وقد أطلق "الإيواء" على الكفالة وكفاية الحاجة مجازًا أو استعارة، والمعنى: أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة، وكنتَ على تربية كاملة، مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص؛ لأنهم لا يجدون من يُعنَى بتهذيبهم، وتعهّد أحوالهم الخُلُقية ... فكأن تكوينُ نفسْه الزكيّة على الكمال خيرًا من تربية الأبويْن".[٣]

والفعل "آوَى" جاء فعلا ماضيًا دالًّا على طول الزمن واتساع الحدث من خلال الواو المفتوحة الدالة على الطول والسعة والانفتاح، ثم امتداد الألف وتماوجها إلى أعْلى، والألف من الأصوات القويّة ذات النبرة العالية التي لها إيقاعها وجرسها الشديد الحنجريّ المهموس، وفي ذلك دلالة على الأوسعيّة والإطلاق في لفظ الإيواء دون تقييد؛ لذا حذف المفعول، كأنّ الله . تعالى . أراد ان يقول: " آواك وأوى إليك وآوى لك، فجاء الحذف للعموم والإطلاق في المعنى".[٤] وهذا كله من باب التكريم لرسول الله . ﷺ .

(١) تفسير ابن عطية ، (٤٩٤/٨) .
(٢) المفردات ، صـ(٤١) .
(٣) التحرير والتنوير ، (٣٩٩/٣) .
(٤) تفسير الرازي ، (٢٠٩/٣٢) .

وقيل: حذف المفعول لظهور المحذوف، فمعلوم أن المتحدِّث هو الله . تعالى . والمتحدَّث إليه هو النبي ـ ﷺ ـ، إذن: "في الكلمة إيجاز لفظي؛ لظهور المحذوف، أو ليجري على نهج الفواصل فيوافق رؤوس الآي، كقوله . تعالى . ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[1] أي: "والذاكرات الله".[2]

وهذا معناه أنه لو ذكر المفعول في الكلمة فقيل "آواك" لكان هناك تقييد في الإيواء وتخصيص، ولكان هناك إطناب في غير محلّه؛ لأن كاف الخطاب في كلَ من الأفعال: (ودّعك . يجدك . وجدك) كافية لبيان المخاطب وتحديده؛ حتى لا يصبح تكريرها إثقالًا للخطاب .

ومن هنا يتبيّن لنا أن لا تعارض بين ذِكْر المفعول . كما في: ودّعك ... . وحذفه كما في "فآوَى"، والغرض منهما واحد وهو : تكريم النبي وتعظيم منزلته وقَدْره عند الله . ﷻ، كما أن السياق والمقام هما الفيْصل في الذكر أو الحذف، ويبدو أن السّياق هنا هو الذي دلّنا على أن حذ ف المفعول أبلغ بلا ريْب؛ لأن المقام مقام رفق ولين ورحمة، حتى في نزول الوحي على رسول الله . ﷺ ـ بأخفّ الكلمات؛ تعبيرًا عن إفضال الله وإنعامه وشفقته على النبي الكريم، يقول الشيخ دراز . رحمه الله .: "إن القرآن الكريم يستثمر دائمًا برفق أقلّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، أجل، تلك ظاهرة بارزة فيه".[3]

كما اختير الفعل "آوَى" دون غيره؛ لما فيه من معنى الأمن والأمان والمأمن والحمى والمعقل والملاذ، وكلها كلمات وأساليب موحية يتولد منها معنى العطاء والإكرام، وفي الإيواء بالفعل الماضي إشارة إلى أن هذه النعمة

(١) سورة الأحزاب ، من الآية (٣٥) .
(٢) تفسير القرطبي ، (٩٥/٢٠) .
(٣) النبأ العظيم ، د . محمد عبدالله دراز ، صـ (١٢٧) .

ليست وليدة اللحظة أو الحاضر أو المستقبل ، وإنما المراد آواك منذ حلقَك وما قلاك وما ودّعك قطّ .

والكلمة " آوَى " بحروفها الموجودة [الألف الممدودة ـ الواو ـ الألف اللينة] امتداد لهذه النعمة من خلال امتداد الألف، يتبعها الواو التي تضمّ الشفتيْن كأنها تصوّر حال المنقِذ والمنقَذ، ثم ينطلق به إلى النجاة والأمان عن طريق الألف الأخيرة ذات المقطع الصوتي المفتوح الذي يمثل الفرج بعد الشدّة والمنحة بعد المحنة، "والفعل بما يحمله من طمأنينة وهدهدة روح المتعب، والخاطر القلق، والقلب الموجوع نلمح فيها حاجة الشحنة السالبة إلى الشحنة الموجبة بين لفظ (اليتيم) المكسور ومقطعه الصوتي الطويل بيائه الممتدّة، وبيْن الإنقاذ بإيوائه بألفيْن ممتديْن في "آوَى".[1]

وهذا كلام جيد ونفيس؛ لأن من يتدبر آيات السورة (مطلعًا ومقصدًا وختامًا) يجد كأنها طريق إنقاذ يوصّل بعضه إلى بعض ويكمل بعضه بعضًا، واقرأ لترى ذلك في قول الله: (ما ودعك ربك وما قلى) إلى قوله: (فترضى)، ثم فجأة يُقطع ليُسْتأنف من جديد ليكون المعنى أوْفى وأكمل للأول في مواصلة النعمة، لتكون النهاية إحاطة المنعِم بالمنعَم عليه ثم الأمر بشكر المنعِم على نعمه، فيكون قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ حتى قوله : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، "وكأن ذلك استئناف مسوق مساق الدليل على تحقيق الوعد، أي هو وعد جارٍ على سَنَن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه بك في الشدائد باطّراد".[2]

وهكذا تجد معظم حروف السورة من حروف الرخوة والهمس، وهي مناسبة للسياق والمقام والمشاهد والأحداث، وكل ذلك محمول بالمواساة والرفق

(١) في ظلال القرآن، (١٨٤/٣٠)
(٢) التحرير والتنوير، (٣٩٩/٣٠) .

واللين؛ "لذا تستشعر في التعبير جوًّا من الحنان اللطيف، والرحمة الوديعة، والرضى الشامل، والشجى الشفيف".(١)

كما يُلحظ في هذه الآية التي معنا . وآيات السورة كلها . عدم استعمال ضمير الجمع (كما في سورة الشرح)، والفيْصل في ذلك هو السياق والمقام والحال، ففي سورة "الضحى" تجد جوًّا نفسيًّا منتشرًا في السورة كلها يحتاج إلى طائف من الودّ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، والشعور بالطمأنينة واليقين مقابل ما أشاعه وزعمه المبطلون، فكان مثل هذا السياق والمقام يلائمه حديث الخليل لخليله والحبيب لحبيبه لا استعمال ضمير المتكلم.

أما في سورة "الشرح" فالمقام والسياق مختلفان؛ إذ الغرض من ضمير الجمع هو إشعار المخاطَب بعظمة النعمة، وجلال واهب النعمة، ومكانة الموهوب إليه النعمة، والله أعلم.

بقى لنا في هذا الموضع سؤال يثير الانتباه ويلفت النظر، وهو : كيف يحسن الامتنان من الله . تعالى . على نبيه، بأنه كان يتيمًا فآواه، وهل هناك فرق بين هذا الامتنان وبين قوله . تعالى . حكاية عن فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾(٢) في معرض الذمّ لفرعون؟ وما كان مذمومًا من فرعون كيف يحسن من الله ؟!

وقد أجاب عن هذا السؤال الإمام فخر الدين الرازيّ قائلًا: "إن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوّي قلبه ويَعِدَه بدوام النعمة، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون؛ لأن امتنان فرعون مُحبِط؛ لأن الغرض: فما بالك لا تخدمني؟ وامتنان الله بزيادة نعمه عليه؛ حتى يسأله: ما بالك لا تقطع

(١) التصوير الفني، (صـ ١٠٥) .
(٢) سورة الشعراء: من آية (١٨) .

عنى رجاءك؟ ألستُ شرعتُ في تربيتك؟ أتظنني تاركًا لما صنعتُ؟ بل لابد أن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة، كما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.[1]،[2]

وقد يفهم من سؤال الله ـ تعالى ـ لفرعون غرض بلاغي آخر هو تجاهل العارف، حيث يرتبط هذا اللون البلاغي البديعي بالاستفهام التقريريّ على سبيل المبالغة في الوصف المذكور، ويُراد به هنا الذمّ والتوبيخ لفرعون؛ لأنه يعلم نِعَم الله عليه، لكنه لا ينهض بالمهمات المطلوبة منه، وكأنه جاهل للنعمة وقدْر المُنعِم، وجاهل لشُكره وحَمده .

❁❁❁❁❁

(١) سورة البقرة: من آية (١٥٠).
(٢) تفسير الرازي: (١٩٦/٣١).

المبحث السادس

إيصاء اللّه ـ تعالى ـ النبيَّ ـ ﷺ ـ باليتامى خيرًا

قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ ﴾. (١)

الدلالة اللغوية في كلمة (تقهر):

﴿تَقۡهَرۡ﴾: كلمة تدل على غلبة وعلوّ، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صار في حالٍ يُذلّ فيها، وقُهر إذا غُلبَ، والقَهْقر: الحَجر الصُّلب، وليس يبعد عن الأصل الذي بُني عليه الباب.(٢)

وقيل: الغلبة القهر والأخذ من فوق، والقهار من صفات الله ـ ﷻ ـ والقاهر أيضًا هو الغالبُ جميع الخلْق، ويُقال: أخذتُهم قهرًا، أي: من غير رضاهم، ويقال: أقهر أي صار أمره إلى الذلّ والقهر. (٣)

المعنى العام:

جاءت هذه الآية الكريمة مبيِّنة نَهْيَ الله ـ تعالى ـ نبيّه ـ ﷺ عن قهر اليتيم؛ وذلك جزاءً لما أنعم عليه في ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾، وفي هذا النهي إحسان إلى اليتيم وباب عطف وشفقة عليه من الرحمن الرحيم، والمعنى: "تعطّف على اليتيم وآوِه، فقد ذُقتَ اليُتم وهوانه، ورأيتَ كيف فعل الله بك، وترحَّم على السائل وتفقَّده بمعروفك كما رحمك ربك فآواك وأغناك، وحّدثْ بنعمة الله كلها".(٤)

التحليل البلاغي:

الفاء في "فأما" فصيحة؛ لأنها أفصحت وبيَّنت الشكر على نعمة الإيواء بعد اليُتم، "وأما" حرف شرط وتفصيل وتوكيد، والتقدير: مهما يكن من شيء، قال ابن عاشور: " فكان مفادها ـ أي أمَّا ـ مشعرًا بشرطٍ آخر مقدَّر هو

---

(١) سورة الضحى : آية (٩) .
(٢) مقاييس اللغة ، قهر (٣٥/٥).
(٣) لسان العرب، قهر (١٢٠/٥، ١٢١).
(٤) الكشاف، ط دار الكتاب العربي ـ ط ـ ثالثة، (٧٦٩/٤) .

الذي اجتُلبت لأجله فاء الفصيحة، وتقدير نظم الكلام: إذا كنتَ تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، وبيَّن له الشكر بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾"[1]، ثم بيَّن علّة تصدير الآية بـ (أمّا) التفصيلية قائلًا: "لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة، ولما كانت "أمّا" بمعنى مهما يكن من شيء قرن جوابها بالفاء".[2]

وقوله: (اليتيمَ) مفعول به مقدّم، والعامل فيه "تقهر"، والمفعول به محذوف عائد على اليتيم، أي: فأمّا اليتيم فلا تقهره، أي اليتيم، وفيه قصر موصوف على صفة، فالموصوف: اليتيم، والصفة: عدم قهره، وأفاد الحصر هنا الاهتمام بشأن اليتيم أكثر من غيره من جنس البشر؛ لحاجته وضعفه وقلّة ناصره.

ويلحظ في الآية تعريف كلمة (اليتيم) بأل، بينما في آية ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ السابقة جاءت منكّرة ورغم ذلك بينهما صلة وطيدة، فالتعريف هنا جاء بأل التي للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكرُها في الكلام، أما "يتيمًا" بالتنكير فقد أفادت التكريم والتفخيم والتعظيم للنبي (ﷺ) ومكانته السَّامقة عند مولاه . جلَّ وعلا؛ لأن الذي وجده وعلمه وخلقه يتيمًا هو الله . سبحانه . ، وما دام هو الذي ربّاه وأنعم عليه بالإيواء بدلًا من اليُتم والفقر فإنه يأمره ويوصيه بإكرام كل من يجده ويعلمه يتيمًا من خلال هذا الأسلوب "فلا تقهر" وفي ذلك حث على احتوائه والقربى منه؛ لأن الخطاب هنا بصيغة النهي يقتضى الوجوب، وظاهر الحكم عام للنبي - ﷺ - ولغيره، فكأن كل يتيم بعينه داخل تحت عبارة (فلا تقهر) وفي الوقت نفسه هو جزء لا يتجزأ من المعنى في آية (ألم يجدك يتيمًا) وكأن تشريف كل اليتامى وإكرامهم جزء من تشريف وإكرام النبي - ﷺ - فكرامتهم من كرامته وعزّهم من عزّه وتشريفهم من تشريفه وقدْرهم من قَدره؛

(١) التحرير والتنوير، (٣٠/٤٠١) .
(٢) السابق نفسه .

ليكون الجميع مشمولًا برحمة الله وعنايته فيكون المعنى: يا محمد، إذا كان الله ـ ﷻ ـ آواك في يُتْمك فلا تقهر اليتيم، بل أكرْمه وأحسنْ إليه كما أكرمك الله وآواك وأحْسنَ إليك، وعليه فيكون المعنى قسيمًا ومشترَكًا بين اليتيم في ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ وبين اليتيم في ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ في تقرير صفة اليُتم في جانب النبي ـ ﷺ ـ، قال الشاطبي في الموافقات: "فما مِن مزية أعطيها رسول الله ـ ﷺ ـ سوى ما وقع استثناؤه إلاّ وقد أعطيت أمته منها نموذجاً، فهي عامّة كعموم التكاليف، بل قد زعم ابن العربي أن سنة الله جَرَت أنه ما أعطى الله نبيًّا شيئًا إلا أعطى أمته منه، وأشركهم معه فيه، ثم ذكر من ذلك أمثلة، وما قاله يظهر في هذه الملّة بالاستقراء".(١)

وقوله: (فلا تقهر): أسلوب إنشائي، صيغته: النهي، غرضه البلاغي: النصح والإرشاد والتوجيه، والمراد بالخطاب هنا في الآية النبي ـ ﷺ أي: أحسن إليه وتلطف به. (٢)

ويجوز أن يعمّ الخطاب النبي ـ ﷺ ـ وغيره ممن يشملهم الحُكم بالتوجيه والوعظ؛ لأن العبْرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فإنه يُراد من صيغة النهي هنا ـ فضلًا عن التوجيه والنصح ـ أمران:

الأول: تعليم الأمة هذا الخلُق العظيم الذي يحض الجميع على رعاية اليتامى وحُسْن معاملتهم واللطف بهم؛ لأن من الناس من يكفل اليتامى قدوةً برسول الله ـ ﷺ ـ وحبًّا فيه وطمعًا في صحبته في الجنّة، وتشير أحاديث كثيرة إلى ذلك في سنته النبوية المطهرة.

والثاني: بما أن القرآن الكريم نزل في العرب وبلُغتهم فإنهم أول الناس مرادًا ومقصدًا بما يرمي ويشير إليه، ومعنى ذلك: أنّ النهي هنا جاء تعبيرًا

(١) الموافقات، لأبي إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) ، (٤١٦/٢)، تحقيق/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن عفان ، ط(١) ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
(٢) تفسير ابن كثير، (٥٢٣/٤) .

عما كان في الجاهلية من قصور وظلم شنيع وقهر بيِّن لليتامى، فأراد بذلك أن يشير إلى رواسب وبقايا ظلم الجاهلية وكيفية التخلص من هذا الداء الخطير الذي كان متفشيًا فيهم دون ضبط للنفْس ورجوع إلى الحق، "وكأن الله . تعالى . جمع كل ذلك في النهي عن قهره؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام بما يصدر من جّراء القلق من مطالب حاجاته، وسبّه بفلتات اللسان سريعة الحصول، والغلبة، والإذلال بالفعل أو القول أو الإشارة".(١)

كما يُلحظ أن ختام الآية هنا في "تقهر" جاء بالفعل المضارع الدال على الاستمرار والتجدّد في الحدث، وكأن في هذا الأسلوب القرآني" فلا تقهر" تذكيرًا بما مضى وأمرًا بما هو آتٍ، ثم تجد ثمّة علاقة أيضًا بين المضارع هنا وبيْن الفعل "آوى" هناك في (ألم يجدك يتيمًا فآوى) رغم اختلاف الزمن والفاصلة، والعلاقة بينهما هي علاقة التأثر بالزمان الذي له فاعليته على الإنسان، والمعنى: كما أحسن الله إليك فيما مضى، فعليك أن تحسن إلى اليتامى في المستقبل، والله أعلم .

ومما يلفت النظر ويسترعى الانتباه في الآية حذف مفعول (تقهر)، والتقدير: تقهره أي اليتيم، وقد حذف؛ لكونه معلومًا فلم يحتج إلى تكرير يؤدي إلى الثقل، وفي ذلك دليل على سرعة الاستجابة للطلب وعدم تركه؛ لذا لم تقترن "الهاء" في (تقهر) إشارة إلى الخفّة في تنفيذ المطلوب وعدم استصعابه قولًا وفعلًا.

وتلحظ . أيضًا . اختلاف الفاصلة هنا عما قبلها: (والضحى ، سَجَى، قلى، الأولى، فترضى، فآوى، فهدى، فأغنى) وكلها بالألف الممدودة المفتوحة لأعْلى، ثم فجأة تستأنف الآية بفاصلة أخرى مباينة ومغايرة لما قبلها وهي (الراء) في "تقهر" ومع ذلك لا تعارض بين المعنى والسياق وبين وحدة

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٠١ ، ٤٠٢) .

المقصد؛ إذ لا يعني اختلاف الفاصلة اختلافًا في الغرض والتحويل من سياق إلى آخر أو مقام إلى آخر، واسمع إليه ـ سبحانه ـ حين قال: "فلا تقهر" ـ بالراء ـ أعطت معنى الثبات والتأكيد على المطلوب بإبراز هذا الحرف التكريريّ [الراء]، وكأنه يكرر الخطاب ويؤكده، وهذا ما يثير الانتباه؛ (لأن الأصوات القليلة تثير الانتباه بقلتها، كما أن الأصوات الكثيرة تثيره بكثرتها، والشيء إذا حصل على خلاف عادته وعلى غير ما كانت تتوقعه النفس فإنه يكون مدعاة للفت انتباهها وإثارة تطلعها إليه وتشوّقها لمعرفة السبب الذي من أجله جاء على هذه الصورة).[1]

ونفهم من ذلك أن تقديم "اليتيم" على الفعل "تقهر" أبرز صوت الراء التكراريّ، فوفَّر بذلك الإيقاع القوي المشعر بالأمر نظرًا لقّلة المقاطع الصوتية الطويلة المفتوحة، أما تأخير اللفظ فيتسَّبب في إحداث إيقاع أخف لا يتسق مع الأمر الربّاني؛ إذ تزداد المقاطع الطويلة المفتوحة (لو قيل: اليتيما) أو يدخل معها مقطع صوتي مديد في الفاصلة (لو قيل : اليتيم) وستكسر راء "تقهر" حينئذ لالتقاء الساكنين فتضعف صفة التكرير في الراء، "فضلًا عن أن تقديم اليتيم والسائل أفاد الاهتمام بشأنهما، والتوجيه إلى عدم استضعافها". [2]

وقد يدل التكرير في الراء ـ الدال على التكرير في الفعل ـ على التكرار في العقاب والجزاء أيضًا، ويُراد به المبالغة في الردع والزجر ليكون العقاب أشدّ وأنكى.

ومن ناحية أخرى لو قيل: فلا تقهر اليتيما (بالألف) لفقدنا الأداة (أمَّا) بميمها المدغمة المشددة التي تفجّر مع الراء ـ الحسّ المفعم بالمرارة والشجي المعبّريْن عن حال اليتيم الذي هو مظنة الضياع والقهر والذل والعوز.

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، صـ١١٦، د/ مجيد عبدالحميد ناجي، ط (١) ـ بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤م .

(٢) التفسير البياني، (٤٦/١)، والتحرير والتنوير، (٤٠١/٣٠) .

ولو جعلت الفاصلة هي الهاء لقيل: تقهره، ولو ذُكرت الهاء لمَا قدّم اليتيم، ولألغى ذلك الاهتمام بشأنه فلا يكون هناك فصل بين (أمّا) وبين جوابها، هذا الفصل الذي يرتكز عليه كثيرًا في الكلام ليكون محل اهتمام في بعض أجزاء الكلام، "ويظهر أنهم ما التزموا الفصل بين "أمّا" وجوابها بتقديم شيء من علائق الجواب إلا لإرادة الاهتمام بالمقدَّم؛ لأن موقع "أمَّا" لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتمامًا يرتكز في بعض أجزاء الكلام، فاجتلاب "أمَّا" في الكلام أثرٌ للاهتمام وهو يقتضى أن مثار الاهتمام بعضُ متعلقات الجملة، فذلك هو الذي يعتنون بتقديمه".[١]

- **لم اقترن "القهر" هنا بكلمة اليتيم؟**

نرى اقتران القهر بـ (اليتيم) والفعل من القهر لم يأت إلا في هذا الموضع من سورة الضحى في القرآن كله؛ لأنها كلمة قوية في حروفها وصوتها ونبرتها وجرسها القوي المؤلم ، ولعلها وضعت هنا مع اليتيم تخويفًا وتهديدًا، وفي ذلك معنى الوصّية بإكرام اليتيم، والتحذير من ظلمه أو الاقتراب منه بكلمة عابرة أو نظرة جارحة، أو تسلط عليه بأذى؛ وذلك لما عليه لفظ اليتيم من رقّة وهَمْس يعبّران عن مدى ضعفه وانكساره وسرعة انفعاله وتجاوب إحساسه، ومن هنا فإن هذا اللفظ بقوته جاء تعبيرًا مناسبًا للنهي عن ظلم اليتيم وإيذائه بأي حال من الأحوال، وبأي وسيلة من الوسائل، "فكان لفظ "تقهر" أعمق وأدقّ من أن يُضبط بهذه التفسيرات الممدودة فلا يُظلم ولا يُمنع حقه، ولا يُتسلط عليه بأذى ... وفي هذا ما يؤذن بأن المخلوق لا يحل له أن يتسلط بالقهر على مخلوق مثله، فكيف باليتيم المحتاج إلى الرعاية والعطف؟!". [٢] ومن ثمَّ تظهر لنا مناسبةُ صوت "القاف" القويّ الشديد الغلبة والاستيلاء والإذلال بالفعل أولًا كالدّع والتحقير؛ لقوله

(١) التحرير والتنوير، (٤٠١/٣٠) .
(٢) التفسير البياني، (٥٢/١) .

. تعالى .: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾[١]، وبالقول ثانيًا؛ لقوله . تعالى .: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾[٢]، وبالإشارة ثالثًا مثل عُبُوس الوجه.[٣]

ومن وجوه التناسب . أيضًا . بين لفظ "اليتيم" من حيث (صوته ومعناه) وبين الفعل "تقهر" [أن القهر المنهي عنه هو القهر الذي لا يُعامل به غير اليتيم في مثل ذلك] [٤]، وهذا معناه أن قهر اليتيم غلطة ، وقهر غير اليتيم تأديب وإصلاح.

كما أن في الآية تفصيلًا عن طريق اللف والنشر المرتب، حيث إن هذه النعم الثلاث المتفرّع عليها هذا التفصيل قوبلت بثلاثة، "فقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ لا محالة، أي فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليُتْم، فكنْ أنت مكرمًا للأيتام رفيقًا بهم".[٥] وهذا معناه أن الآيات في سورة الضحى تجرى على وتر واحدٍ وفلك واحدٍ وغرضٍ واحدٍ هو تعدد ما أنعم الله به على نبيه ومصطفاه، واليُتم نعمة من هذه النعم، ثم يأتي الإيواء عاقبة له، ثم تربية نفْس النبي . ﷺ. وكل مؤمن على التواضع لليتيم وترك قهره والفظاظة معه من خلال الجانب السلوكي والنفسي معًا.

ومن هذا التفريع للآيات الموسومة بالوَحدة العضوية واللفّ والنشر يتبين لنا "أن الصورة القرآنية متميزة بمواد تشكيلها، وفروعها، كما هي متميزة أيضًا بأنواعها ووظائفها، وبين موادّها وأنواعها علاقة وارتباط، وقانون عام، يطبع كليهما بالطابع الديني والتربوي الذي يميز الصورة القرآنية". [٦]

❁❁❁❁❁

(١) سورة الماعون: آية (٢).
(٢) سورة النساء : من آية (٥) .
(٣) التحرير والتنوير، (٤٠٢/٣٠) .
(٤) السابق نفسه .
(٥) السابق نفسه، (٤٠١/٣٠) .
(٦) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: تأليف/ عبد السلام أحمد الراغب، صـ٥٥، نشر فصلت للدراسات والتربية والنشر، حلب، ط. أولى، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

المبحث السابع

زجـــر اليتـــيم وطـــرده عـــن حقـه من صفـات المكـذبين بالـدين

قال . تعالى . : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ ﴾. (١)

مقصد السورة :

ذكر البقاعي أن المقصود الأعظم للسورة "التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث، فإنه يُجرّئ المكذب على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأعمال حتى تكون الاستهانة بالعظام خُلُقًا له فيصير ممن ليس له خلاق". (٢)

ونفهم من ذلك أن صفة (دع اليتيم) من الصفات الذميمة والصور المشينة التي لا تنقطع صلتها بمن يكذب بالدين، والتكذيب بالدين أصل الخبائث، جاء الدعّ فرعًا منه، وأن هذا الكافر كما أبغض اليتيم وأبعده من كل خير فهو كذلك البغيض المُبغَض البعيد المُبعَد من كل خير بأن حرم نعمة الإيمان والتصديق بالعقيدة، ومن ثَمَّ حُرم خير كفالة اليتيم وأجر العطف عليه؛ لأن اليتيم جزء من الدين، وجزء من اهتماماته التي حث عليها ورغب فيها باعتباره فردًا من أفراد الأمة والمجتمع الإسلامي.

علاقة السورة بما قبلها:

- " أنه . سبحانه . أمرهم آخر سورة قريش بشكر نعمته بإفراده بالعبادة، وعرفهم أول هذه (أي الماعون) أن ذلك لا يتهيّأ إلا بالتصديق بالجزاء

---

(١) سورة الماعون: آية (٢)، يدعّ: من الدعّ، وهو الدفع بعنف وشدّة، وهو أصل يدلّ على حركة ودفع واضطراب، يُقال: دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا، ومنه قوله . تعالى .: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ ﴾ سورة الطور، آية (١٣)، (مقاييس اللغة: ٢٥٧/٢، مادة: دعَّ).

(٢) نظم الدرر : (٢٧٥/٢٢) .

الحامل على معالى الأخلاق، الناهى عن مساوئها، وعجب ممن يكذب بالجزاء مع وضوح الدلالة عليه بحكمة الحكيم، ووصف المكذب به بأوصافٍ هم منها في غاية النفرة، وصوّره بأشنع صورة بعثًا لهم على التصديق وزجرًا عن التكذيب". (١)

- ذمَّ الله . تعالى . الجاحدين لنعمة الله في سورة قريش "أطعمهم من جوع"، وذمَّ في هذه السورة من يدعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين(٢)، وهذا يعنى أن الله . ﷻ . بعد أن وفّر لهم سبل الأمن والأمان من الجوع والخوف وذلك بالغِنى والربح بالتجارة من خلال رحلتي الشتاء والصيف ذمّ بخلهم في هذه السورة فلم يدفعوا إلى اليتيم ماله، ولم يمنعوا عن المسكين فقره بالحض على طعامه(٣)، وهذا هو عْين الجحود والكفر للنعمة والمنعِم، وكيف لا؟ وقد سجّل القرآن على هؤلاء إعراضهم واعتذارهم لأنفسهم يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾. (٤)

علاقة الآية بأجزاء السورة :

- ذكر الرازي أن قوله: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾ شديد الصلة بقوله بعده: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾، حيث لم يقل: ولم يطعم المسكين؛ "لأنه إذا منع اليتيم حقه، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه؟! بل هو بخيل من مال غيره، وهذا هو النهاية في الخسَّة، ويدل على نهاية بخله، وقساوة قلبه، وخساسة طبعه"(٥).

(١) السابق نفسه، صـ (٢٧٥، ٢٧٦).
(٢) التفسير المنير: (٨١٩/٣٠).
(٣) تفسير المراغي (٢٤٧/٣٠).
(٤) سورة يس: من الآية (٤٧).
(٥) تفسير الرازيّ: (٣٠٣/٣٢)

- علاقةُ السبب والمسبَب: وذلك بين قوله في مطلع السورة: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ ﴾ وبين قوله: ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾، والرابط بينهما حرف (الفاء) الدالة على التسبيب؛ "لأن الله نزع الرحمة من قلبه، ولا ينزعها إلا من شقيّ؛ لأنه لا حامل على الإحسان إليه إلا الخوف من الله . ﷻ فكان التكذيب بجزائه سببًا للغلظة عليْه".(١)
- العلاقة بين براعة الاستهلال وحُسن التخلص من حيث مناسبة الابتداء للمقصود مناسبة تامة، وتطبيق ذلك تجده في أول السورة: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾ وفي آخرها: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾، وذلك عندما تلتقي صورته القبيحة وهو "يمنع الماعون" بصورة الكافر الذي "يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين"، وهذا ما يسميه البلاغيون أيضًا بردّ العجز على الصدر؛ لأن مَن يدعّ اليتيم مِن جملة مَن يكذب بالدين، ومنع الماعون هو الكفر والجحود للنعم(٢) ولا يخرج هذا الجحود وهذا الكفر للنعمة إلا من مكذب ضالّ منكر للبعث والدين، فكأن المعنى: أن هؤلاء لا أحسنوا إلى عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خَلْقه، حتى ولا بإعارة ما يُنتفع به ويُستعان به مع بقاء عيْنه ورجوعه إليهم، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أوْلى وأوْلى(٣)، أي لا يؤدون حقّ اليتيم المعلوم، ولا حق المسكين من الزكاة المقرّرة عليهم، كما قال . سبحانه . : ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾(٤) وكأن كل الأوصاف الذميمة ناشئة عن التكذيب بالدين، وكلها موصلة إلى الهلاك والويل.

(١) نظم الدرر: (٢٧٨/٢٢، ٢٧٩).
(٢) لسان العرب : (٤٠٩/١٣)، مادة (مَعَنَ) .
(٣) التفسير المنير: (٤٢٤/٣٠).
(٤) سورة الذاريات: آية (١٩).

- ثم ترى العلاقة واضحة بين قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ وبين ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ في معنى الزجر عن البخل بكل ما فيه منفعة من قليل أو كثير[١]، كما يجمع بين الآيتْين شدّة الاستحقاق والنهي عن الامتنان.[٢]
- وهناك علاقة كذلك بين "منع الماعون" وبين "التكذيب بالدين" من ناحية اللغة، فمن معاني "الماعون": الإقرار بالحق، يُقال: أمعن بحقي إذا أذعن واعترف، ومن قولهم: إذا تمعَّن أي أقرَّ بالحق وتصاغر وتذلّل انقيادًا[٣]، ومنه حديث أنس لمصعب بن الزبير- رضي الله عنهما-: "أنشدك الله في وصية رسول الله . ﷺ . فنزل عن فراشه وقعد على بساطه وتمعَّن عليه، وقال: أَمْرُ رسول الله . ﷺ . على الرأس والعْين".[٤] فكلمة "الماعون" - إذن - راجعة إلى الدين والعقيدة في أول السورة باعتبار أن الدين حق، والماعون هو الإقرار بهذا الحق، وعليه فيكون المعنى: فلا هو أقرَّ وصّدق بالدين، ولا هو أقرّ بحق اليتيم (مع كونه حقًّا يُدفع إليه)، ولا هو أقرّ بحق الماعون[٥] الذي يُخرَج للفقراء والمساكين (على سبيل الزكاة).[٦]

---

(١) البحر المحيط، (٥٥١/١٠).

(٢) روح المعاني، (٤٧٥/١٥) .

(٣) لسان العرب، (٤٠٩/١٣) مادة : "معن" .

(٤) كتاب الغريبين في القرآن والحديث، لأبي عبيْد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ)، تحقيق/ أحمد فريد المزيدي، راجعه د. فتحي حجازي، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية ، ط. أولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، (١٧٦٣/٦)، والمراد بالوصية في الحديث وصية النبي . ﷺ بالنساء.

(٥) باعتبار أنه يُراد بالماعون أيضًا المال (على لغة قريش)، ظ/ البحر المحيط (٥٥٤/١٠): أبو حيان الأندلسي، تحقيق/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠هـ.

(٦) باعتبار أن كلمة "ماعون" على زنة "فاعول" من المعن وهو الشيء القليل، وسميت الزكاة ماعونًا؛ لأنه يؤخذ من المال رُبع العُشر، فهو قليل من كثير. ظ/ لسان العرب، (٤١٠/١٣) مادة: مَعَنَ.

سبب نزول الآية :

قيل: إنها نزلت في أبى سفيان بن حرب، وكان ينحر كل أسبوع جزورَيْن، فطلب منه يتيم شيئًا فقرعه بعصًا، فأنزل الله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ ﴾.(١)

التحليل البلاغي :

قوله: (فذلك)، الفاء للسببية، وما بعدها سبب عن التشويق الذي دلّ عليه الكلام السابق، أي لما كان كافرًا مكذِّبًا كان كفره سببًا لدعّ اليتيم، فجاءت هذه الفاء رابطة السابق باللاحق، فمطلع السورة هو الأساس الذي بنيت عليه أجزاء السورة، فقد بدأت ببراعة الاستهلال من حيث مناسبة الابتداء للمقصود مناسبة تامة، وكأن في الاستفهام ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ ﴾ تشويقًا يحقق تنبيهًا للسامع والقارئ ليفتضح أمره وتعلن صفاته التي خلت من الإنسانية، وجردت من الدين والعقيدة حين يهين اليتيم ويزجره قسوة وغلظة ، فضلًا عمّا في الاستفهام من التعجيب والاستغراب من حال المستفهم عنه على سبيل المبالغة في التنبيه والتشويق.

وقد صيغ هذا التعجب في نظم بديع مشّوق؛ لأن الاستفهام عن رؤية من ثبت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتّى لمعرفة المقصود بالاستفهام، "فالتكذيب بالدين شائع عندهم، ولذلك لا يكون مثارًا للتعجب، فيترقب السامع لما يرد بعده، وهو الآية الثانية: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾".(٢)

ومن ثمَّ كان لهذا الابتداء موقع يرتبط مع بقية عناصر الصورة برابط عضويّ، أي أن السورة الكريمة تنبثق عنه وترتبط به وهي تصوّر الكافر

(١) أسباب النزول للواحديّ، صـ٤٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير : (٥٦٤/٣٠) .

والمنافق، وأن معانيه تمتدّ داخل السورة لتولّد هذه الصور، مما يجلى شدة الالتئام والانسجام. (١)

وهذا دليل نفهم منه أنه لا يُحمد من القائل أن يعّمي معرفة مغزاه عن السامع لكلامه في أول ابتدائه حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحْسَن أن يكون في صدر كلامه دليل على حاجته، ومبيّن لمغزاه ومقصده. (٢)

ويجوز أن تكون هذه الفاء في "فذلك" فصيحة، فهى أفصحت وبيَّنت عن صفة من يكذب بالدين، فجاء في بيانه أنه ﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾.

وذكر صاحب التحرير والتنوير أنها للعطف، أي عطف الصفة الثانية على الأولى لإفادة تسبب مجموع الصفتين في الحكم المقصود من الكلام، والمعنى: عطف صفتي دعّ اليتيم وعدم إطعام المسكين على التكذيب بالدين، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين؛ لأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء. (٣)

وقوله: (فَذَٰلِكَ) اسم إشارة للبعيد، وغرضه البلاغي التحقير، لأن الكافر لما احتقر شأن اليتيم وتكبّر عليه استحقَّ أن يكون في منزلة وضيعة وبعيدة؛ "إذ إن وضع اسم الإشارة المتعّرض لوصف المشار إليه موضع الضمير

(١) الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي: ياسين نصير، مطابع دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣م، صـ٢٢.

(٢) ينظر ذلك في حديث أبي هلال العسكري عن المطالع، ووجوب أن يكون فيها دلالة على الغرض والمقصد في فصل "الفصل والوصل" ، وهو الفصل التالي للابتداء والتخلص أثناء حديثه عن الدلالة والغرض تحت عنوان (إطالة المعقود حتى الوصول إلى المحلول): كتاب الصناعتين، لأبى هلال العسكري، صـ ٤٤٢، تحقيق/ على محمد البجاوي، و/ محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ١٤١٩هـ.

(٣) التحرير والتنوير، (٣٠/٥٦٤، ٥٦٥) .

للإشعار بعلّة الحكم، والتنبيه بما فيه من معنى البُعد على بُعد منزلته في الشرّ والفساد".[١]

واسم الإشارة هنا إشارة إلى صاحب اسم معيّن أو صفة معيَّنة دلّ عليه قوله: "الذى" اسم موصول، وقد حقَّق هذا الموصول بعد اسم الإشارة زيادة في التشويق قبل ذكر الصفة الفعلية "يدعّ"، وكأن هذا الاسم الموصول جاء دالًّا على ما دلّ عليه اسم الإشارة وزيادة، فهو مؤكّد له مبالغة في الزجر والتحقير، فضلًا عما دلّ عليه اسم الإشارة هنا من الاختصاص والتمييز أكمل تمييز، أي اختصاصهم وتمييزهم استحقاقهم كمال الشهرة في الشرّ والفساد؛ "لأن كمال الشهرة كما يكون في الخير يكون في الشرّ، فأيّ مانع من اعتبار استحقاقهم كما الشهرة في الشرّ؟!".[٢]

كما دلّ اسم الإشارة هنا ـ أيضًا ـ على التعيين وأن المشار إليه بمَرأى منهم، ومحسوس ومشاهد، كقول ابن الروميّ يمدح أبا الصقر وزير المعتمد[٣]:

هذا أبو الصقر فرد في كتابته ... وهو ابن شيبان بين الطَّلْح والسَّلَم

ومن فوائد تمييز المسند إليه في هذا المقام ـ كما قال د/أبو موسى ـ : "أنه يحدّد المراد تحديدًا ظاهرًا ويميزه تمييزًا كاشفًا، وهذا التحديد قد يكون مقصدًا مهمًّا للمتكلم؛ لأنه حين يكون معنيًّا بالحكم على المسند إليه بخبر ما فإن تمييز المسند إليه تمييزًا واضحًا يمنح الخبر مزيدًا من القوّة والتقرير"[٤]. وهذا معناه أن اسم الإشارة في الآية وُضع للدلالة على كمال تمييز المشار إليه

(١) تفسير أبي السعود، (٢٨٧/٣٠) .
(٢) روح المعاني، (٣٦٥/١٥) .
(٣) البيت من بحر "البسيط"، ظ/ ديوان ابن الروميّ، (٣٥٤/٣)، تحقيق/ أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
(٤) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، صـ ٢٠٠.

وتقريره واستحضاره في ذهن السامع وإعجابه منه، وذلك دال على مزيد تميّزهم بالشر والفساد، والله أعلم .

وجاء التعبير باسم الموصول هنا "الذى" استهجانًا وتحقيرًا للمشار إليه، وفيه تخصيص أيضًا يدلّ على أن جملة الصلة "يدعّ" موصولة بهم على سبيل الثبوت والتوكيد، فقد جاء موصولًا بما صدر منهم مِن فِعلٍ وهو (دعّ اليتيم)، وتركٍ وهو (عدم الحض على طعام المسكين)، "وللموصول إيحاء آخر وهو إدراك العموم لكل من كانت هذه صفته". (١)

وفي الإتيان باسم الموصول بعد الاستفهام وفعل الرؤية زيادة تشويق حتى تقرع الصلة سمع السامع فتتمكن منه أكمل تمكن، والمراد بـ (الذى) الجنس الواحد فما فوق فيفيد العموم تارةً والخصوص تارةً أخرى؛ لأنه إما أن يُراد بالخطاب هنا النبي . ﷺ خاصّة؛ "لأنه رأس الأمة، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يفهم هذا الأمر حقَّ فهمه غيرُه"(٢)، وإما أن يُراد بالخطاب في "أرأيت" كل عاقل يعلم ويسمع ويرى مَن تتأتى منه علامات التكذيب بالدين، مما يجعل المقصد أكثر شموليةً واتساعًا؛ ليتعرف كل مؤمن عاقل على صفات من يكذب بالدين، فينهى نفسه عن ذلك، وعن كل ما ورد فى السورة من صفات لينجو بعد ذلك من الهلاك، وهكذا وصف التعبير القرآني هذا المكذّب بأوصافٍ في غاية النفرة، وصوّره بأشنع صورة بعثًا لهم على التصديق وزجرًا عن التكذيب(٣) وتحذيرًا من التشبيه والتقليد بأصحاب الرذائل.

ومن ثمَّ فقد جُمع بين أمور متناسبة على سبيل مراعاة النظير، فتأتي العظة والعبرة في صورة الكافر والمكذب بالدين أوّلًا (على سبيل الإجمال) ثم

(١) معاني النحو، صـ ١١٠، د/ فاضل صالح السامرائي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. أولى، سنة ٢٠٠٧م .
(٢) نظم الدرر، (٢٢ /٢٧٦) .
(٣) نظم الدرر، (٢٢ /٢٧٦).

تنتشر هذه الصورة في كل صفة دلّت على قبحٍ من غير مبالاة، وخضوعٍ للباطل، واجتنابٍ للأفعال الحميدة (على سبيل التفصيل)، ومنها دعّ اليتيم.

ومما يُلحظ هنا تكرار الاسم الموصول "الذى" بعد الآية الأولى، تأكيدًا على تقبيحهم ومزيدًا للتعجيب من حالهم وإنكارهم.

ثم قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾: والفاعل في "يدعّ" عام راجع على كل كافرٍ مكذب بالدين؛ لأن صورة الكافر هذه صورة عامة؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ "وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه على المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة من العقاب، فإذا كان منكرًا للقيامة لم يترك شيئًا من المشتبهات واللذات، مما يدل على إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي". (١)

وصيغة المضارع " يدع" لإفادة التكرار والدوام والاستمرار والقصدية الإرادية، مما يزيد صورة الكافر قبحًا، ويظهر إصراره على التكذيب وفعل القبائح والمنكرات، "فالتشديد في "يدعّ" أفاد أنه يعتاد ذلك على الدوام والتكثير، فلا يتناول الوعيد من وُجد ذلك منه وندم عليه". (٢)

وهذا دليل على أن المكذب بالدين هو الذي يصرُّ على فعل الذنب، بخلاف المؤمن، لقوله . سبحانه .: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾(٣)، ثم ترى في هذا التكرار تصويرًا حسيًّا مجسّمًا لدعّ اليتيم مرّةٍ تلو مرّة، وفى ذلك إشارة إلى عدم الندم؛ "لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم، إنما المكذب هو الذي يصّر على الذنب".(٤)

(١) تفسير الرازي، (٣٠٢/٣٢) .
(٢) السابق نفسه، صـ (٣٠٢، ٣٠٣) .
(٣) سورة آل عمران: من آية (١٣٥) .
(٤) تفسير الرازي، (٣٠٣/٣٢) .

إذن: أفادت صورة المضارع التضعيف تأكيدًا وتكثيرًا، فضلًا عن دلالة الفعل على التجديد والحركة والإيماء بأنه إراديّ من فعل الإنسان.

وهكذا صوّرت الآية الكافر والمكذب بالدين من الظاهر والباطن، فرسمته وأبرزت له لوحة متكاملة يراها الناظرون، وكأنها مشاهَدة ماثلة أمام عيونهم لم تُسحق ولم تُمح، وذلك من خلال صيغة المضارع، وكأن في ذلك تحقيقًا للعظة والعبرة على مرّ العصور والأجيال والأزمان؛ تجسيدًا لغيظ وحقد الكافر وما في قلبه من قسْوة وغلظة موجعة تجاه اليتيم لا تنقطع إلى قيام الساعة، وفي ذلك دلالة على أن هذه الصورة في غاية الفظاعة والنفرة والمهانة لكل من يدعّ اليتيم.

واختيار لفظ "الدعّ" هنا وإيثاره على غيره في هذا المقام مناسب للغرض والسياق، خاصّة بما يحمله اللفظ من حروف تشعرك بأصواتها الانفجارية (وبالذات حرف الدال) التي ينحبس عند النطق بها الهواء انحباسًا تامًّا، ثم لا يكاد ينساب حتى ينحبس في صوت انفجاريّ آخر.

ألا يشعر هذا بالإحاطة وضغط النفس، خاصّةً عند الانتقال من صوت الدال، ذلك الصوت المجهور الصامت الذي ينحبس الهواء معه فترة من الزمن عند أصول الثنايا العليا، ثم يُترك فجأة ليعود إلى الانحباس مرة أخرى عند أقصى الحلق أو أقصى الحنك اللين للنطق بالعْين، ألا يشعر كل ذلك بتكرار الضغط على النفْس والعزم والإصرار على دفع اليتيم وزجره بحيث لا يبقى منه شيء، "وفي ذلك دلالة على أن تكرار الأصوات في الحروف كان مع اتفاق المعانى". (١)

وحرف الدال مع العْين حرف شديد دالّ على الحدّة والقوّة في فعل الشيء أو تركه، خصوصًا وأنت ترى هذه الحدّة وهذه القوّة في الفعل "يدعّ" دالة على الديمومة والخطورة والقسْوة والفظاظة مع "اليتيم"، وذلك اللفظ المختوم بحرف

(١) علم اللغة: د. محمود السعران، ط. سنة ١٩٦٢م، صـ١٨٦ .

الميم الساكنة التي قبلها ياء ممتدة إلى أسفل مكسورة، وهذا يشي بانكسار اليتيم وسكونه الذي لا حول له ولا قوّة إلّا بالله.

وفي لفظ "يدعّ" ثلاث قراءات: قراءة حفص عن عاصم(١)، وقرئ "يَدَغ" أي يدعو جميع الأجانب ويترك اليتيم، وقرئ "يَدْعو اليتيم"، أي يدعوه رياءً ثم لا يطعمه، وإنما يدعوه استخدامًا أو قهرًا أو استطالةً. (٢)

وعلى القراءات الثلاث تجد في الفعل معنى السخط والسخرية الشديدة من اليتيم احتقارًا له وتكبّرًا عليه، مما يشير إلى انعدام القيم النبيلة، والثقافة السليمة، والحوار النافع، ولا أدلّ على ذلك من وصف الحق ـ سبحانه ـ لهم: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ لأنه لا يمكن أن تجتمع هذه الأوصاف الذميمة إلّا في مكذب ضالّ عائق بعيد عن الهُدَى والدين.

لماذا ساق الله ـ تعالى ـ هاتين الصفتين "دعّ اليتيم، وترك الحض على طعام المسكين".

مع أن هناك صفات أخرى تجتمع فيمن يكذب بالدين؟

والجواب: أن الله ـ تعالى ـ قصر هاتين الصفتين على سبيل التمثيل والاكتفاء بهما؛ "لأنا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين الوصفين بل على سبيل التمثيل، كأنه ـ تعالى ـ ذكر في كل واحدٍ من القسمين مثالًا واحدًا؛ تنبيهًا بذكره على سائر القبائح، أو لأجل أن هاتين الخصلتين كما أنهما قبيحان منكران بحسب الشرع لهما أيضًا مستنكران بحسب المروءة والإنسانية".(٣)

كما نرى قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَدُعُّ﴾ بهذا اللفظ وهذه الصيغة مرتبطًا بقوله بعده: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، والجامع بينهما فنّ بلاغي

(١) وهي القراءة المشهورة عند المصريين.
(٢) تفسير الرازي، (٣٠٢/٣٢) .
(٣) تفسير الرازي، (٣٠٢/٣٢) .

يسمى" الاحتباك"؛ "إذ الدعّ في الأول يدل على المقت في الثاني، والحض في الثاني يدلّ على مثله في الأول، وقد أفاد الاحتباك هنا التحذير مما يدعو إليه الطابع البشري من ترك اليتامى والمساكين والفقراء، والميل إلى الأغنياء، والتحذير من الاستهانة بحقّ الآتي مهما كان فقيرًا؛ إعظامًا لمطلق إتيانه".[١]

وفي الكلام إيجاز بالحذف يتناسب مع مقاصد حسن الابتداء، على أساس أن (الفاء) في "فذلك" واقعة في جواب شرط محذوف، و"ذلك" مبتدأ، والموصول خبره، والتقدير: "هل عرفت الذي يكذب بالجزاء أو بالإسلام؟ إن لم تعرفه فذلك الذي يكذب بذلك هو الذى يدعّ اليتيم"[٢] .

و"أل" في لفظ "اليتيم" لتعريف الجنس، وتفيد استغراق الجنس الحقيقي، فالظاهر في اللفظ العموم، باعتبار أن (أل) في (الذى) لجنس الواحد فما فوق.

ويجوز أن تكون لتعريف العهد، فالألف واللام للعهد الكنائي، أي اليتيم المعهود منه الطلب والسؤال بإلحاح . بعد بلوغه السن المعهودة لاستلام حقه . يبيّنه علّة المنع من خلال لفظ الدعّ في الآية، والله أعلم.

ومما يُلحظ في الآية الكريمة اختلاف فاصلتها عن بقية فواصل آي السورة، حيث إن لفظ (ٱلۡيَتِيمَ) خُتم بالميم، وبقية فواصل السورة خُتمت بالنون، وهذا لا يعني اختلافًا في الوَحدة العضوية أو وَحدة المقصد، فلا تكون الآية في عزلة عن المطلع أو المقطع أو الختام، وهذا هو "تأليف المختلف"[٣] الذى تحدّث عنه الباقلاني وجعله بابًا من أبواب الإعجاز البلاغي في كتاب الله . تعالى . .

(١) نظم الدرر (٢٥٦/٢١) .
(٢) روح المعاني (٤٧٥/١٥) .
(٣) إعجاز القرآن الكريم، محمد بن الطيب الباقلاني، (ت ٤٠٣هـ)، صـ ١٨٧ وما بعدها، تحقيق/ السيد أحمد صقر، نشر دار المعارف، مصر، ط. الخامسة، ١٩٩٧م .

وهذا دالّ على أن الفاصلتين بجَرْسَيْهما "الميم والنون" أشدّ ائتلافًا، وألطف انتظامًا، فالنون في السورة كأنها بمثابة أنين اليتيم حين يدفع بعنف وزجر، كما نسمع أنين الكافر المكذب بالدين وهو في ويلٍ وعذابٍ استحقه جزاءَ تكذيبه.

أما الميم بجرسها الشجيّ في لفظ (ٱلۡيَتِيمَ) فقد جمعت بين الأمرين: بين الأنين والحنين، فهو منكسر، ضعفه مُوارَى خلف يُتمه، وبهذا يظهر لنا أن كلًّا من الفاصلتين تحمل في طيّاتها شحنتين فى آنٍ واحدٍ "شحنة من الواقع الموسيقي الخلاب دلّ عليه الصوت واللغة، ثم شحنة من المعنى المتمّم للآية". (١)

إذن: تغيُّر الفاصلة واختلافها دليل على أن لكل كلمة دلالةً، ووَقْعًا وجَرْسًا خاصًّا، وإيحاءً توحى به في النظم المعجز البديع، "فمن أوجه إعجاز القرآن الكريم: أن تكون كلماته من أصوات متلائمة الجَرْس، سهلة المقاطع، متوازنة الإيقاع، جميلة التأليف". (٢)

(واللّه أعلى وأعلم)

(١) التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، صـ٢٣٠، دار الشروق، القاهرة، ط. الثالثة، ١٩٧٩م.

(٢) أساليب الجملة الظرفية في القرآن، د/ يسري زعير، صـ٢٠٢، ط. الأولى، دار الطباعة المحمدية، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

الخاتمة

بعد هذه السياحة الطيبة المباركة في ميدان بلاغة الحديث عن اليتامى في القرآن الكريم في السور المكية، أقف . في عجالة سريعة . لأسجل أهمّ ما توصلت إليه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج والله المستعان.

أولًا: أسهمت الفنون البلاغية المختلفة فى إيصال مضامين الآيات ومقاصدها بشكل عميق لتوفية نشر مبدأ كفالة اليتيم ومساعدة الآخرين؛ دعمًا لبناء مجتمع إسلامي يهدف إلى بثّ رُوح الوَحدة والتعاون فيما بين أفراده وأسره، عملًا بقول الله . تعالى . : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1]، وقول النبي ﷺ: "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا**"[2]، وغير ذلك من الأحاديث النبوية المطهرة.

ثانيًا: ورَدتْ آيات اليتيم في السور المكيّة في ثمانية مواضع: (سورة الأنعام: الآية ١٥٢ . سورة الإسراء: الآية ٣٤ . سورة الكهف : الآية ٨٢ . سورة الفجر: الآية ١٧ . سورة البلد: الآية ١٥ . سورة الضحى: الآيتان ٦، ٩ . سورة الماعون: الآية ٢) .

ثالثًا: ورد لفظ " اليتيم" بصيغ ومشتقات عديدة، فقد جاء مفردًا في جميع المواضع عدا موضعًا واحدًا في سورة "الكهف" حيث ورد بصيغة المثنّى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾، كما ورد اللفظ بالتعريف تارةً وبالتنكير تارةً أخرى، فقد جاء في كل المواضع معرفة عدا موضعين، أحدهما في سورة "البلد" : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾، وثانيهما في سورة "الضحى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾.

رابعًا: اعتمدت آيات اليتيم على كثير من الأساليب البلاغية، لا سيما الأسلوب الإنشائي، ومنه أسلوب الأمر والنهي والاستفهام في سورة

---

(١) سورة المائدة: من الآية (٢) .

(٢) صحيح مسلم، (١٩٩٩/٤) برقم ٢٥٨٥، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم .

(الأنعام، الإسراء، الضحى) بشكل أعمق وأظهر؛ لما في هذه الأساليب من حثّ على الترغيب في الثواب وإمالة النفس إلى وجوه البرّ والخيْر، والترهيب من ظلم اليتامى وقهرهم وأكل حقوقهم، والتحذير من قربان أموالهم إلّا بالتي هي أحسن، ومن أجل ذلك جاءت السور المكيّة بالذات مبيَّنة لهذا الأمر؛ نظرًا لما كان عليه المجتمع المكي من ظلمٍ وقسوة، فجاءت الآيات كاشفة عن فضح مكائدهم وتدابيرهم الاستعبادية الجشعة وزعامتهم الظالمة وسياستهم الوثنية المزعومة وقوانينهم الباطلة التي سنّوها في مال اليتيم ، فضلًا عن أنهم كانوا أهل جفاءٍ وغلظة في معاملة اليتيم خاصةً؛ لأنهم أهل بادية وصحراء فلم يعرفوا إلّا الحدّة والقوّة؛ لذا كانت التوجيهات القرآنية في مكة أكثر ردعًا وزجرًا وعنفًا بما كان فاشيًا في ذلك المجتمع، ومن ثم كان نزول الآيات في هذا المجتمع دلالة على التربية النفسية والسلوكية قبل العقدية؛ تهيئة لما سيأتى من آداب هذا الدين الذى بعث الله به نبيه محمدًا . صلى الله عليه وسلم . والتى من جملتها: رعاية اليتيم وكفالته .

ومن أكثر الأساليب ورودًا ـ أيضًا ـ: الفصل والوصل؛ لما لهما من أغراضٍ وأسرار بلاغية متعدّدة، وهو باب من أدقّ أبواب البلاغة ورودًا في القرآن الكريم، خاصّة عند التحام الظواهر البلاغية ووصلها ببعضها في نسج السورة على نحو متناغم منظوم العقد بين الآيات ومقاصدها وموضوعاتها.

كذلك شاع "الإيجاز" في كثير من المواطن، والإيجاز رأس البلاغة، وذروة سنام الفصاحة، وحسبك من الإيجاز أن القرآن جعله صورة الإعجاز، وجاءت الآيات البينات من هذا الباب فأغلقت على أرباب البيان كل باب، وكأن في هذا الإيجاز إيحاءً بالتحدّى والتعجيز ضدّ من يسلك باب الهجوم والعداء ضدّ كل فقير ويتيم مفتقر إلى كلمة طيبة وعمل صالح يرضيه.

خامسًا: تبيّن من خلال الدراسة بناء الآيات على الأسلوب الخبريّ في سورة (الكهف، والفجر، والبلد، والماعون) وعلى الأسلوب الإنشائي في سورة (الأنعام، والإسراء والضحى).

وكذا ارتبطت الأفعال ارتباطًا وثيقًا في بناء الجملة، فاحتلَّ الفعل المضارع المكانة العظمى من بينها؛ لما في المضارع من استحضار الصورة وحضور الذهن مع سَرْد المواقف والأحداث وكأنها ماثلة أمام الشخص يشاهدها ويحسها حتى يتخيل نفسه وسط هذه الظروف والأحوال.

كما احتلّ الفعل الماضي مكانة كبيرة في سورة (الكهف) مقرونة بحروف العطف المتنوعة الدلالات والأغراض لإيصال الأفكار والمعاني، وربط الأحداث ببعضها سابقًا ولاحقًا حَدَثًا تلو حدث، مما يدل على مداومة الاهتمام باليتيم وعدم الإغفال عنه في كل زمان ومكان.

كما تبيّن ربط هذه الأحداث بمشاهد من البيئة، وذلك في سورة الكهف والعلاقة بين الغلام، والجدار، والكنز، ثم العلاقة بين كلٍّ من الخضر وسيدنا موسى . عليه السلام، والدخول في قصة، والخروج منها إلى قصة أخرى.

ومن ثمَّ فإن تعدّد الصيغ والأفعال والحروف جاء دليلًا على تعدّد المواقف والأحداث، ووسيلة للتعبير عمّا في مكنون النفس لزيادة وضوح المعاني في الأذهان وتقريبها للأفهام حين تعرض في صورة حسية، وفي ذلك البلاغة العالية، حيث البُعد عن التعبير المجَّرد عن الحسّ البعيد عن إيضاح المعنى وبيان المراد.

سادسًا: وجود تشابه بين موضعيْن ـ على سبيل التنظير ـ أحدهما في سورة الأنعام (آية ١٥٢)، والآخر في سورة الإسراء (آية ٣٤)، وكان الفيصل بينهما هو السياق (الحالي، والمقالي، والمقاميّ)، والسياق في جميعها راجع إلى مراعاة مقتضى حال المخاطَبين من حيث (الزمان، والمكان، والسلوك، والموقف، واللغة) ، فجاءت آية سورة الأنعام ضمن وصايا

مفصَّلة، خُوطب بها العرب الجاهليون؛ تنبيهًا على أن هذه الوصايا من الأعمال المحمودة، وأن الحث عليها تذكير بما عرفوه بالفطرة ونسوه بالشهوة وغشاوة الشرك على قلوبهم، فكان لابد من التفصيل، خصوصًا وأن السياق في هذا الموضع كَثُرَ فيه التنويع بين الأمر والنهى؛ ليدل على تنوع وتميز القضايا وتباين الوصايا التى يتناولها كل أسلوب، وهى في مجملها تؤكّد المعنى، وتثير انتباه القارئ لتتبع الأمر أو النهي لمعرفة غايته والتفكير فيما يترتب على الاستجابة له أو المخالفة ، ولذلك جاء السياق في سورة الأنعام على سبيل الإلزام والتكليف والتحذير، أما في سورة الإسراء فقد جاء السياق على سبيل النصح والوعظ والتوجيه والإرشاد، فضلًا عن الإجمال بعد التفصيل؛ لأن العهد في موضع سورة الإسراء قد شمل كل ما جاء من وصايا في الموضع السابق، وكأن هذا العهد جاء مقرِّرًا ومؤكِّدًا على هذا الرباط بين كل وصية وأختها، وأن الإنسان مسئول عن كل هذه الوصايا؛ لأنها في جملتها أساس الدين، وقوام حياة الضمير، وقوام حياة الأسرة، وقوام حياة المجتمع كله بالتكافل والطهارة في المعاملات، وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات مرتبطة بعهد الله، ولا ريب في أن كل إنسان عاقل سيُسأل عن ذلك كله يوم القيامة، وسيُجازَى عليه إما بالثواب أو العقاب.

سابعًا: استخدام بعض الألفاظ القويَّة (لغةً وصوتًا ومعنًى) في بعض الآيات التي تشير إلى التواضع وترك الفظاظة مع اليتيم، سواء بالقول أو الفعل أو الإشارة، كما في سورة الضحى: (فلا تقهر) ، وسورة الماعون: (يدعّ اليتيم)، والدّع والقهر لفظان لهما ما لهما من القّوة والحدّة والاستطالة والقسْوة والجفاء، وهما أقوى فعلين استخدمهما القرآن في التعبير عن ذمّ وردع من يقهر يتيمًا أو يزجره بعنف.

ثامنًا: وجود التناسب بين الآية المنوط بها التحليل وبين باقي أجزاء السورة بصورة واضحة كما في سورة "الضحى"، ثم علاقة السورة بالسورة في الربط بين الآيتين كما بيْن سورتي "الفجر والبلد" .

تاسعًا: أن تحليل الآية الواحدة مع قِصَرها ـ كما في سورة (البلد، والفجر، والضحى، والماعون) ـ ربط ونسيج للصورة كلها باعتبارها لوْحة متكاملة أبرزت لنا فيها هذه الآيةَ (قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني والصور والأساليب) باعتبارها جزءًا لا يتجزأ منها، ومن ثمَّ أقول: إن الصورة البلاغية المكوّنة من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية ترتبط في جميعها بالجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة داخل الآية أو السياق، فضلًا عمّا فيها من تناغم وإيقاع يربط بين الصور وبعضها في الآية فتتفاعل العلاقات لتصل في النهاية إلى ما يسمى بالبناء العام للصورة الكلية.

عاشرًا: تبيَّن أيضًا من خلال هذه الدراسة اختلاف "الفاصلة القرآنية" في بعض المواضع عن بقية فواصل الآيات داخل السورة الواحدة القصيرة، مثل سورتي "الضحى، والماعون"، وهذا دليل على أنه ثمة تناسق بديع وترتيب دقيق وترابط محكم وتآلف عجيب بين الأصوات والمعاني، مما له أعظم الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وبذلك يصعب تحريك كلمة أو حرف أو استبداله بآخر، وهذا سرّ الإعجاز ، فكان التوافق بين الكلمات والجمل والمفردات (وإن اختلفت الفاصلة) سورًا منبثقًا لحفظ القرآن الكريم الذي أحكمت آياته .

حادي عشر: أظهر البحث أن لليتامى أثرًا فاعلًا في تحقيق جملة من المعاني الإحسانية الدافعة إلى الترقى في مدارج الإيمان والبعد عن التردّى في دركات الكفر من خلال :

- إبراز صورة الدنيا وحقارتها وأنها عرض زائل وقناع فانٍ لجمع المال، وإيثار النفْس على الغير، والأنانية ، والطمع، كما تبين في آية سورة

"الفجر" : ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾، وهذا ردع لهم وزجر؛ لما يضمرونه من حقدٍ وعداوة لليتيم مع قدرتهم على البذل والإنفاق والسخاء .

- إعلام البشر بما هو غيب عنهم ليرتقوا بالعلم والمعرفة، وينجُوا من الهلاك والوَيْل، كما في سورة "الماعون" من صورة الدعّ هذه التي وُضعت ذمًّا وتحقيرًا للكافر المكذب بالدين، وفي الوقت نفسه إعلام للمؤمن بهذا العقاب الذي وضعته السورة في ختام الآيات؛ احترازًا بنفسه خشية الوقوع في الهلاك، وتجنّبًا عن صفات أصحاب الهوى والضلال البعيدين عن منهج الله وسلوك الإيمان والعقيدة.
- ترشيح دعائم الإيمان والتربية الكاملة في النفوس، تعهّدًا بحفظ مال اليتيم وحقوقه من جهة، كما في سورتي "الأنعام والإسراء" من خلال هذا النهي الموجَّه على سبيل الوصّية والموعظة والنصح ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، ثم تذوّقًا وتلذّذًا بحلاوة النعمة وحال ساكنيها من جهة أخرى، كما في سورة الضحى: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾، ثم ترى غرس الرحمة والرأفة واللين والرقّة في قلب المؤمن حين يتعامل مع اليتيم، وهذا هو قول الله . سبحانه . : ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾، وهذه كلها سلوكيات إيمانية ترقَى بالمؤمن إلى درجات المتقين في الدنيا والآخرة.

وبـــعد ،،،

فكانت هذه دراسة بلاغية لآيات اليتيم في السور المكيّة، لذا يوصى البحث طلاب العلم والباحثين بدراسة آيات اليتيم في السور المدنيّة؛ لتمثل بذلك ثروة عظيمة من العلم الغزير داخل مكتبة البلاغة العربية، وليكملوا ما نقص من أذهاننا ويعدلوا عما في البحث من آراء قد تصيب وقد تخطئ.

هذا ولا يعلم أسرار إعجاز كتابه إلا العليم الخبير، وحسبي أني اجتهدت في طريق ممتد لا يكاد ينتهي السيْر فيه ما دامت عقول تفكر وألباب تتأمل ونفوس تتدبر وجهود تتلاحق وتتضافر وتتواصل، راجيًا من الله . تعالى .

أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله عملًا صالحًا متقبّلًا في موازين حسناتي وحسنات والديّ وأساتذتي وشيوخي وطلاب العلم ومَنْ لهم فضل عليَّ من قريب أو بعيد إلى يوم لقاء الله، وصلى الله ـ تعالى ـ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

(والحمد لله أوّلًا وآخرًا)

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: من كلام رب العالمين .

(١) الاتساق والانسجام في سورة الكهف: محمد بوستة، ط (١)، ١٤٣٥هـ/ ٢٠٠٩م.

(٢) الأدب المفرد: للإمام البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٨٩م.

(٣) الأساس في التفسير: سعيد حوّى، دار السلام، القاهرة، ط(٦)، ١٤٢٤هـ.

(٤) أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، تح/ عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط(٢)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٥) الاستهلال فن البدايات في النصّ الأدبي: ياسين نصير، مطابع دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣م.

(٦) أسس بناء القصة من القرآن الكريم دراسة أدبية ونقدية: د. محمد عبداللاه عبده دبور، رسالة دكتوراة في الأدب والنقد، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالمنوفية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

(٧) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: د. مجيد عبدالحميد ناجي، ط (١)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

(٨) أساليب الإنشاء الطلبي وطرق إفادتها غير معانيها الحقيقية دراسة ونقد: د. محمود موسى حمدان، ط. أولى، مطبعة دار الكتب الجامعية، (دون تاريخ) .

(٩) أساليب الجملة الظرفية في القرآن: د. يسري زعير، ط. أولى، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ .

(١٠) الأضداد: لابن الأنباري، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٠م.

(١١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط. سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
(١٢) أطراف من سيرة النبي . صلى الله عليه وسلم .: د. السيد محمد الديب، بحث نشر في مجلة الأزهر الشريف، السنة (٩٢)، الجزء (٣)، ربيع الأول ١٤٤٠ هـ/ نوفمبر ٢٠١٨م، مطبعة دار الجمهورية للصحافة، إصدار مجمع البحوث الإسلامية.
(١٣) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم، ط. أولى، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.
(١٤) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: د. عائشة علي عبدالرحمن، دار المعارف، ط (٣)، (دون تاريخ).
(١٥) الإعجاز في دراسات السابقين: عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط(١)، ١٩٧٤م
(١٦) إعجاز القرآن الكريم: محمد بن الطيب الباقلاني، تح/ أحمد السيد صقر، دار المعارف، مصر، ط(٥)، ١٩٩٧م.
(١٧) إعراب القرآن المنسوب للزجاج: تح/ إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية، ١٩٦٤م.
(١٨) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية: آمال بنت عبدالعزيز العمرو، ط. أولى، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٢٧ هـ.
(١٩) ألوان البديع في سورة الكهف: د. سلمان سالم الحسّوني، ط. سنة ٢٠١٦م.
(٢٠) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ، الملكة العربية السعودية، ط(٥)، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

(٢١) الإيضاح في علوم البلاغية: للخطيب القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط (٤)، ١٩٩٨م.
(٢٢) الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية: د.محمد علي الصلّابي، المكتبة العصرية، ط(١)، (دون تاريخ) .
(٢٣) البحر المحيط في التفسير: لأبي حيان الأندلسي، تح/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط. سنة ١٤٢٠هـ.
(٢٤) بدع التفاسير : لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري، طبعة مكتبة القاهرة، ط (١)، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
(٢٥) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: د. جميل عبدالحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، ١٩٩٨م.
(٢٦) بردة المديح: للإمام البوصيري، ضبط وتعليق/ عبدالرحمن حسن محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، ط (٢)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
(٢٧) البرهان في علوم القرآن: للزركشي، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط (١)، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.
(٢٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تح/ محمد علي النجار، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مطبعة الأهرام التجارية، قليوب، مصر، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
(٢٩) بلاغة الحوار القرآني ووظيفته الحجاجية في سورة الكهف: تأ/ نور الدين دحماني، المكتبة اللغوية ، ط (١)، (دون تاريخ).
(٣٠) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية: د. محمد أبو موسى، ط. ثانية، دار التضامن، القاهرة ، ١٩٨٨م.
(٣١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، ط (٢)، القاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(٣٢) البلاغة والمعنى في النصّ القرآني تفسير أبي السعود أنموذجًا، د. حامد عبدالهادي حسْين، مطبعة هيئة إدارة الوقف السُّني، بغداد، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
(٣٣) تاج العروس : لمرتضى الزبيدي، تح/ مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية، ط. سنة ١٩٦٥م.
(٣٤) التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر ابن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
(٣٥) تربية الأولاد في الإسلام: الشيخ/ عطية صقر، ط (١)، القاهرة ، مكتبة وهبة، ٢٠٠٣م.
(٣٦) التصوير الفني في القرآن الكريم: للشيخ/ سيد قطب، دار الشروق، ط(١٧)، (دون تاريخ).
(٣٧) التعبير الفني في القرآن: بكري شيخ أمين، دار الشروق، القاهرة، ط (٣)، ١٩٧٩م.
(٣٨) تفسير أبي السعود: لأبي السعود محمد بن محمد العماديّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(١)، (دون تاريخ) .
(٣٩) تفسير البغويّ " معالم التنزيل" : للإمام أبي محمد الحسْن بن مسعود الفراء البغويّ، تح/ خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، ط. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط(٣)، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
(٤٠) التفسير البياني للقرآن الكريم: تح/ د. عائشة محمد علي عبدالرحمن (المعروفة ببنت الشاطئ)، دار المعارف، القاهرة، ط (٧) .
(٤١) تفسير التسْتري: لأبي محمد سهل بن عبدالله بن يونس التسْتري، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢٣ هـ.
(٤٢) تفسير جزء عم : للشيخ الإمام/ محمد عبده، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط. سنة ١٩٨٥م.

(٤٣) تفسير حدائق الروح والريحْان في روابي علوم القرآن: محمد الأمين بن عبدالله الأرمي العلوي الشافعي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط (١)، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
(٤٤) تفسير الرازي: للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
(٤٥) تفسير الطبريّ "جامع البيان في تأويل القرآن" : للطبري، تح/ أحمد محمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، ط (١)، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
(٤٦) تفسير ابن عجيبة "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" : لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تح/ أحمد عبدالله القرشي، ط. د / حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
(٤٧) تفسير ابن عطية: تح/ عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢٢هـ.
(٤٨) تفسير القاسمي " محاسن التأويل" : لمحمد جمال الدين القاسمي، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤١٨هـ.
(٤٩) التفسير القرآني للقرآن: عبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط(١)، (دون تاريخ).
(٥٠) تفسير ابن كثير: تح/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٩هـ.
(٥١) تفسير المراغي: تأليف / أحمد بن مصطفى المراغي، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط (١)، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
(٥٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط (٢)، ١٤١٨هـ.

(٥٣) تفسير النسفي: عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار إحياء الكتب العربية، (دون تاريخ) .
(٥٤) تفسير النيسَابوريّ "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" : تح/ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٦هـ.
(٥٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: د. محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، القاهرة، ط (١)، ١٩٩٨م.
(٥٦) التكرير بين المثير والتأثير: د. عز الدين على السيد، ط (٢)، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
(٥٧) التناسق الصوتي البديع في تعبير القرآن الكريم: د. فايزة عثمان أبو زيد، بحث نشر في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر الشريف، العدد (٢٧)، سنة ٢٠٠٩م.
(٥٨) التوكيد في النصّ القرآني: د.نبراس جلال عباس، مجلة كلية الآدب، العدد (١٠١).
(٥٩) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم: للإمام الخطّابي، تح/ محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط(٤)، ١٩٥٦م.
(٦٠) الجامع لأحكام القرآن "تفسير القرطبي": تح/ أحمد البردوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط (٢)، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
(٦١) جماليات الترابط في قصص سورة الكهف: د. علي بن محمد الحمود، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٦٢) الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي، تح/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط (١)، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٦٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، ضبط وتدقيق/ يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت ، (دون تاريخ).
(٦٤) حقوق اليتامى كما جاءت في سورة النساء: د. سليمان إبراهيم اللاحم، دار العاصمة، ١٤٢٤هـ.
(٦٥) الخصائص البلاغية في سورة يوسف: محمود حسن مخلوف، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
(٦٦) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط (٤)، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
(٦٧) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د. عبد العظيم المطعني، رسالة دكتوراة مطبوعة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط (١)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
(٦٨) خواطر الإمام الشعراوي: الشيخ محمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم، نشر عام ١٩٩٧م.
(٦٩) دراسات منهجية في علم البديع: د. الشحات محمد أبوستيت، ط(١)، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
(٧٠) دراسة في سورة الأحزاب: د.محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٢م.
(٧١) دلائل الإعجاز : الإمام عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
(٧٢) دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ، تحقيق/ د. محمد رواس قلعة جي، عبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
(٧٣) دلالات التراكيب: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط (٢)، دار التضامن القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

(٧٤) ديوان ابن الرومي: تح/ أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(٣)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
(٧٥) ديوان أبي تمام: وقف على طبعه/ محي الدين الخياط، ط دار الكتب العلمية، ١٩٧٣م.
(٧٦) ديوان عنترة: تح/ محمد سعيد مولوي، ط. المكتب الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٠م.
(٧٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني "تفسير الألوسي": تح/ علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١)، ١٤١٥هـ.
(٧٨) سّر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغويٍّ واحد في القرآن الكريم: د. عوْدة الله منيع القيْسي، دار البشير، مؤسسة الرسالة، ط (١)، عمان، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
(٧٩) سنن أبي داود: تح/ محمد محي الدين عبدالحميد، دار إحياء السنة النبوية، مصر، القاهرة.
(٨٠) سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سْورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، تح/ بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
(٨١) سورة الضحى دراسة موضوعية: د. أحمد عبدالسلام أبو الفضل، ط(١)، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
(٨٢) شرح ديوان عنترة : للخطيب التبريزي، تقديم / مجيد طراد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
(٨٣) شرح رياض الصالحين : محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١٤٢٦هـ.

(٨٤) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: محمد عبدالباقي الزرقاني، تح/ طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط (١)، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
(٨٥) شرح صحيح البخاريّ: أبو الحسن علي بن خلف بن بطال، ط(١)، الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠٠م.
(٨٦) شرح النووي على مسلم: للإمام أبو زكريا محي الدين النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(٢)، ١٣٩٢هـ.
(٨٧) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي، تح/ أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط(٤) ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
(٨٨) صحيح البخاريّ: للإمام البخاري، تح/ محمد زهير بن ناصر ،دار طوق النجاة، ط(١)، ١٤٢٢هـ.
(٨٩) صحيح مسلم: للإمام مسلم، تح/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٩٠) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط(٤)، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.
(٩١) صناعة الكتابة (علم البيان، المعاني، البديع): د. رفيق خليل عطوي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (١)، ١٩٨٩م.
(٩٢) العزف على أنوار الذكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة: د. محمود توفيق محمد سعد، ط (١)، ١٤٢٤هـ.
(٩٣) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية: د. إبراهيم الهدهد، رسالة دكتوراه مطبوعة، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، مكتبة الإيمان، ط (١) القاهرة.
(٩٤) علم اللغة: د. محمود السعران، ط. سنة ١٩٦٢م.
(٩٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ بن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٩٦) فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب محمد صديق خان الحسْيني البخاري التنوجي، تقديم/ عبدالله إبراهيم الأنصاري، نشر المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
(٩٧) فتح القدير "تفسير الشوكاني" محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط (١)، ١٤١٤ هـ.
(٩٨) الفروق بين القرية والمدينة، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن (اللغوي والبياني)، بقلم/ محمد إسماعيل عتوك، ط (١)، ٢٠١٠م.
(٩٩) الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: د. محمد بن عبدالله بن صالح الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض، ط(١)، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
(١٠٠) في ظلال القرآن: الشيخ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط (١٧)، ١٤١٢هـ.
(١٠١) القصة القرآنية الخصائص والأهداف: علي حسين محمد سليمان، ط(١)، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية، ١٩٩٥م.
(١٠٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: عبدالكريم الخطيب، مؤسسة دار الأصالة، ط(١)، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
(١٠٣) القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن العثيمين، دار الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط(٢٠)، ١٤٢٤هـ.
(١٠٤)كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): لأبي هلال العسكري، تح/ على محمد البجاوي، و/ محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩هـ.
(١٠٥) كتاب الغريبين في القرآن والحديث: لأبي عبيْد أحمد بن محمد الهروي، تح/ أحمد فريد المزيدي، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط(١)، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(١٠٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: لجار الله الزمخشري، تح/ محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤١٥هـ.
(١٠٧) كشف المعاني في المتشابه من المثاني: أبو عبدالله بدر الدين الحموي الشافعي، تح/ د. عبدالجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط(١)، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠.
(١٠٨) لسان العرب: لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط (٣)، ١٤١٤هـ.
(١٠٩) لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط (١)، ١٩٩١م.
(١١٠) لمسات بيانية نصوص من التنزيل: د. فاضل صالح السامرائي، دار عمان، عمان، ط(٥)، ٢٠٠٩م.
(١١١) مباحث في علوم القرآن: تأ/ د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط (٧)، ١٩٧٢م.
(١١٢) مباحث في علوم القرآن: تأ/ د. مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٣٥)، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
(١١٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع وترتيب/ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار إحياء الكتب العربية، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
(١١٤) مختار الصحاح : للرازي، تح/ محمود خاطر، ط(١)، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٥م.
(١١٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي، المكتبة الأموية، بيروت، دمشق، ٧٠١هـ.
(١١٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق / أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط (١)، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

(١١٧) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: لأبي بكر البقاعي، دار النشر، مكتبة المعارف، الرياض، ط(١)، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧م.
(١١٨) معانى الحروف: للرمّاني النحوي، تح/ د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، ط(٢)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
(١١٩) معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي ، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(١)، ٢٠٠٧م.
(١٢٠) المعجم الكبير: للطبراني، تح/ حمدي عبدالمجيد السلفي، دار النشر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط (٢)، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
(١٢١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للأصفهاني، ط(١)، بيروت، دار الكتب العلمية، (دون تاريخ) .
(١٢٢) المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، تح/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط (١)، ١٤١٢هـ.
(١٢٣) مقاييس اللغة: لابن فارس، تح/ عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
(١٢٤) من أسرار البيان في سورة لقمان: تأ/ د. عبدالفتاح عيسى البربري، ط(١)، مطبعة الأمانة، مصر، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.
(١٢٥) من أسرار النظم القرآني في سورة القلم: د. رفعت إسماعيل السوداني، ط (١)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
(١٢٦) من بلاغة حروف المعاني في النظم القرآني: د. بدر عبدالعال حسين، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة (٢)، العدد (٣)، سنة ١٤٣٥هـ.
(١٢٧) من بلاغة القرآن: تأ/ احمد أحمد البدوي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
(١٢٨) الموافقات : لأبي إسحاق الشاطبي، تح/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن عفان، ط(١)، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(١٢٩) موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس، تعليق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
(١٣٠) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم، ط ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
(١٣١) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د. تامر سلوم، ط(١)، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣م.
(١٣٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، و ط. الهند، ١٣٨٩هـ.
(١٣٣) النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير، تح/ محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية، (دون تاريخ) .
(١٣٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: للواحدي، تح/ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(١) ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
(١٣٥) وظيفة الصورة الفنية في القرآن: تأ/ عبدالسلام أحمد الراغب، نشر فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط(١)، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
(١٣٦) اليتيم في القرآن والسّنة: تأ/ عزّ الدين السيد علي بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط(٢)، (دون تاريخ).

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	١٠٦٣
٢	التمهيد	١٠٧٠
	أولًا: مفهوم اليتيم وحقيقته	١٠٧٠
	ثانيًا: مكانة اليتيم	١٠٧٣
٣	عرض إجمالي لآيات اليتيم في السور المكية	١٠٧٧
٤	**المبحث الأول:** النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالحسنى في حفظ ماله وتحقيق مصلحته إلى أن يبلغ الرشد	١٠٧٨
٥	**المبحث الثاني:** إقامة الجدار نوع من أنواع حفظ الثروة المنتظرة لليتيم رحمة بعباده الصالحين	١١١٧
٦	**المبحث الثالث:** توبيخ الإنسان على بخله وترك إكرام اليتيم مع الغِنى	١١٥٧
٧	**المبحث الرابع:** إطعام اليتيم القريب سبب من أسباب النجاة في الآخرة	١١٦٦
٨	**المبحث الخامس:** امتنان الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ ﷺ ـ في يُتمه بنعمة الإيواء	١١٧٥
	المبحث السادس: إيصاء الله ـ تعالى ـ النبيَّ ـ ﷺ ـ باليتامى خيرًا	١١٩٩
٩	**المبحث السابع:** زجر اليتيم وطرده عن حقّه من صفات المكذبين بالدين	١٢٠٦
١٠	**الخاتمة**	١٢١٩
١١	**المصادر والمراجع**	١٢٢٦
١٢	**فهرس الموضوعات**	١٢٣٩

ـ تم بحمد الله ـ